في

رحاب السيدة زينب

محمد بحر العلوم

BP
٥٢
/٢
/ز٩
٣ب
١٤٠٠ ق

دار الزهراء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

www.haydarya.com

في رحاب السيدة زينب

في السيرة والتاريخ

٣

مفهرس

في رحاب السيدة زينب

محمد بحر العلوم

دار الزهراء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت

هدية الشهيد السعيد
السيد عز الدين بحر العلوم
لمكتبة الروضة الحيدرية

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م

الطبعة الثانية

١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م

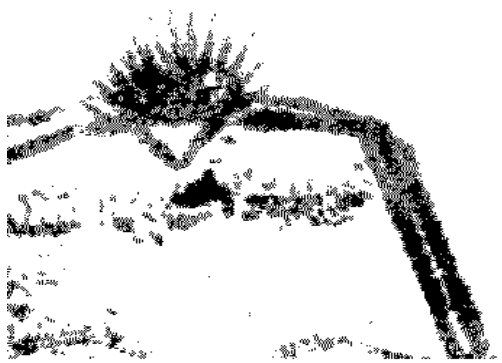

في دنيا زينب

زينب حفيدة الرسول ، المشعل الذي أنار الدرب للثائرين من أجل العقيدة .

زينب ابنة علي ،البطلة التي أججت الثورة في وجه الباطل، ومزقت دنيا الظالمين .

زينب بضعة الزهراء ، التي تحملت المسؤولية كاملة بصمود واخلاص في أداء الرسالة الخالدة .

وزينب شقيقة الحسنين ، التي شاركت في الدور القيادى للدعوة وامتداد كلمتها .

وإذا كان هذا الكتاب – من سلسلة آل البيت – مخصصاً لعرض سيرة كهذه السيرة الطاهرة فانما الهدف منه أن نتعرف على موقف الاسلام من المرأة ، وتحديد مسؤلياتها العامة الجهادية .

وهل الاسلام الا مجدا بالحسين بن علي عليها السلام،وقد دفع بشقيقه في الميدان ، وزخم المعترك لتحمل راية الجهاد للدعوة الاسلامية ... وقد كشف بذلك ، أن المسؤولية الجهادية لم تقتصر على الرجال ، فللمرأة دور كبير فيها .

دية الشهيد السعيد
د عز الدين بحر العلوم
بة الروضة الحيدرية

ومن هذا المنطلق الإسلامي لا بد أن نعيد النظر في تربية بناتنا لنجعلهن في مستوى المسؤولية ، وخير قدرة لهن ، زينب ابنة علي ، وأمها فاطمة الزهراء، ومن قبلها المثل الأعلى خديجة زوجة الرسول الأعظم .

وإذا كان لي رجاء فمن الله سبحانه أطلب أن يوفقني لاتمام « سلسلة آل البيت» ، وأن يعين «دار الزهراء» على اتمام الشوط، وهو ولي التوفيق .

محمد الحسين آل بحر العلوم

في : ١/محرم/١٣٩٥

١٩٧٥/١/١٤

صحوة الفجر

وأوشكت الرياح أن تمزق صبر العشاق ، فلوعة الانتظار تجثو في قلوبهم .. وصدق الكلمة ، وارتعاشة الحق تذكيهم احساساً منقطع النظير .. لولا عودة الشيخ أبو معاذ لعشاق حديثه .

وتوافد السمار في تلك الأمسية ، يحدوهم شوق ، وتناغيهم لهفة .. شوق لسماع أخبار الرواد الأوائل .. ولهفة للتزود من حديث الدعوة .

واشراقة القمر في ذلك المساء ، وصفو الجو ، وعذوبة الهواء بعث في العشاق بهجة لا تعلوها بهجة ، مع فرحة لا تضاهيها فرحة بعودة الشيخ المحدث .

وأقبل الشيخ أبو معاذ يتوكأ على عصاه ، وعلى محياه مسحة من صعاب الأيام ، وعلى رأسه ظل من غبار الأحداث ، وعلى جبهته رقدت خطوط التاريخ .

وتهللت أسارير الحاضرين لمقدم محدثهم ، وخفوا لاستقباله وفي العيون زهوة ، وعلى الشفاه ثناء ، ومن الوجوه تشرق ضحكة الرضا .

واكتمل الشمل في فناء المسجد ، وتحلق المستمعون حول الشيخ وتسمرت عيناه في السماء ، وكأنه يستلهم نجومها الرائعة مفتاح حديثه . وأنامله تلعب بلحيته ،يوزع نظراته بين جلاسه، يستعرضهم ويتعرف عليهم ، بعد أن حال الزمن دون لقائهم فترة طويلة .

وتكلم الشيخ . وروعة الايمان تغطي وجهه ، وقال :

بأمي أنتم وأمي يا آل رسول الله ، كهولكم خير الكهول، وشبانكم خير الشبان ، ونساءكم خير النساء ، ونسلكم خير نسل ...

وسكت الشيخ أبو معاذ ليستعيد أنفاسه قليلاً.. ودار همس بين القوم ، وارتسمت على وجوههم علامات الاستفهام .. عمن سيكون حديثه في هذه الأمسية الندية

وفجأة يطل شبح السكون ، فقد عاد الشيخ إلى حديثه ، وانساب صوته الهادىء يلف ارجاء المجلس،يلامس الاسماع برفق، ويلج القلوب بحنان ، ويشيع في الأجواء روعة الايمان .

فحديث الليلة عن المثل الشامخ للبطولة ، والصورة الحية للوفاء والتجسيد الكامل للايمان ، والمنطلق الواعي لكلمة الرسالة ... انها :

زينب ..

ينب بنت علي بن أبي طالب ، حفيدة الرسول الأعظم

ووليدة الزهراء البتـــول ، وأخت الحسنين سيدي شباب أهل الجنة .

ومن أي جانب تراه . يزهر ، ويشرد ، ويعبق ..

فصحوة الفجر تزهر في بيت علي وفاطمة ، بعد أن باركه رسول الله بزواجها بأمر مـن السماء . يقول – عليه الصلاة والسلام – وهو يجمع بين الراسين الكريمين – :

« اللهم هذه أبنتي ، وأحب الخلق إلي .. اللهم وهذا أخي وأحب الخاق إلي .. اللهم أجعله لك ولياً ، وبك حفياً . وبارك له في أهله .

« يا علي ، أدخل باهلك بارك الله تعالى لك .. رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، أنه حميد مجيد »

وصحوة الفجر تشدد في حياةعليوفاطمة ،فقد كشف رسول الله الحقيقة ، وهو يسر أبنته الغالية :

« يا فاطمة ، ما زوجتك من نفسي ، بـل الله تعالى تولى تزويجك في السماء ، وقد زوجتك خير أهلي ، سيداً في الدنيا وسيداً في الآخرة ، ومن الصالحين » .

وصحوة الفجر تعبق في دنيا علي وفاطمة ، فقد بشرهـا رسول الله بما لا تصل إلى قمته بشرى :

« جمع الله شملكما ، وجعل نسلكما مفاتيح الرحمة ،ومعادن الحكمة ،وأمن الأمة » .

أثر العطاء ، بمجد يطاول السماء شموخاً ، ونور لا يخمد مشعلها على مر الأيام .. فكانت البداية تحفل بالحسنين .سيدي شباب أهل الجنة ، وريحانتي رسول الله ، وشبلي على بن أبي طالب ، وإمامين ان قاما وان قعدا .

وازداد العطاء سخاء باشراقة الطلعة الثالثة في غدها السعيد ... وساعة الأمل الأخضر تقترب كلما مر ليل ، وطلع نهار ستضع بضعة الرسول ، وزوج على مولودهـــا الثالث عن قريب .

وبيت علي وفاطمة لم يحصد سنابل الحزن منذ أن فارقه أبو طالب – مؤمن قريش – وودعته خديجة – أم المؤمنين – .

وبيت علي وفاطمة لم يمسح عن أجفانه مصاب ، ومرارة الحوادث منذ أن تحمل محمد مسؤولية الرسالة الخالدة .

وبيت على وفاطمة لم تغف فيه الجراح ، حتى تأزم من جديد منذ أن عاهد على ربه على أن لا يقر سيفه إلا فى نحور أعداء محمد ، وقلوب الخارجين على دعوته .

حتى حانت هذه الساعة السعيدة ، فهل ستغير من ملاح الحزن المنطبعة فى ارجاء هذا البيت العتيد ؟

وفعلا غيرت هذه الساعة السعيدة ملامح هذا البيت الشامخ واحالته إلى زغردة ترف أصداءها فى الأجواء ، فتصل إلى مشارف مسجد الرسول .. وفرحة تتسلق اسواره وجنباته دون معاناة .

فقد استقبلت حفيدة الرسول دنياها ببسمة بريئة ، لمت من حولها العيون ، وأدارت عينيها البريئتين في وجـــوه المتحلقين حول أمها الزهراء فزرعت في عيونهم الشموخ .

وتهادى النّباء المسر إلى أبيها علي ، كـما يتهادى العطر ، وتعلو الفرحة وجه الحسنين ، وهما يحفان بأبيهما ، وتكاد قلوبهما تطير إلى الأم الطاهرة ، ليحضناها ، ويرشفا منها الحنان .

ويلتف حول الامام علي من كان عنده في المسجد ليباركوا له بالحدث السعيد ... وتطفو على وجه الأب ظـلال فيها من السعادة أمواج ومن الحزن غيوم ..

ومن الصعب أن يجتمع هذان مرة واحدة في وجه أحد . لكنهما اجتمعا في وجه ابن أبي طـالب .. يوم ميلاد حفيدة الرسول ، وريحانة الزهراء .

وقال له بعض أصحابه ما يقعدك يا علي عن الذهاب إلى بيتك لتقر عين فاطمة بمولودها .

ولم يكن علي بحاجة إلى من ينبهه إلى هذا الأمر .. فان قلبه كان عند فاطمة ، وايمانه بالله كان يطمئن في أصعب اللحظات – التي تمر على أحب الناس اليه بعد رسول الله ، وأقربهم منه .

لكن عليا في تفكير عميق ، وما كان ذلك حاله من قبل .. فلم يعرف الوجوم طريقا إلى ملامحه حتى في أحلك الساعات .. فما بال الإنسان المشرق يبدو وكأنه مثقل بالهموم !!

وقطع علي الطريق بين المسجد والبيت ،ومن خلفه الحسنان، وهو يستعرض الأيام،وأنفاسه تتصاعد،وكأنه قطع أميالاً طويلة.

ويقف أبو الحسن على فاطمة ، وقد تلاقت العيون ، وغارت في أعماق الأيام . ثم مدت يدها الكريمة ، وعليها الوليدة ، وهي تلمع كزفة نجم ، ويأخذها الأب بكل رفق وحنان ، وتشعر الطفلة بدفء الأبوة ، فتفتح عينيها لأبيها ، وترتسم البسمة على ثغرها الطاهر .. ويطبع على جبينها قبلة ، ،بردفها الحسن بثانية ،والحسين بثالثة . .وتلتهم الشفاه هذه القبل الحانية، مطالبة بالمزيد ، لتبقى ذخيرة لها في وجه الزمان ..

ثم يلقى أبوها في أذنيها الشهادتين،وكأنها حزمة ضوء لتبقى مستعرة في أعماقها تنير عالمها بالايمان،وتفرش دربها بالاخلاص.

وتجمعن النسوة من حول الأب المسرور بوليدته ، والعاطفة تملأ أجواءهن بطالبن أن يضع لها اسماً ، فيردمن رداً رفيقاً ، ويقول لهن بحر الكلام ، ووداعة الأب المجهد :

« ما كنت لا سبق بذلك رسول الله ،أنه على أوبة من سفره، وهو أولى باختيار الأسم المناسب لحفيدته ..

كانت السنة الخامسة للهجرة يوم اكتملت الدنيا بطامة هذه الموحدة الطاهرة وفيها عاد رسول الله من سفره .

وما كان رسول الله من عادته أن يسبق بيت فاطمة بيت،ولا لقياها لقا . .هي الأول والاخر عنده .هام بها حبا ، وارتفعت

عنده مكانة ، حتى كان يقول ، ويكرر القول :

« أفرح لفرح فاطمة ، وأغضب لغضبها » .

ويشرق البيت بقدومه ، ويحتضن الأم والحفيدة ، ويطبع على رأسيها قبله تطفر من بينها قطرات بيضاء تنعش خد الطفلة وكأنها تعوذها من شر الأيام .

ثم تقول له الزهراء :

يا ابتاه لم يسبقك إلى تسميتها أحد ، فاختر لها ما ترغب فيه من الأسماء ..

ويسميها الرسول الأعظم « زينب » .

وتدور الأيام ، والطفلة العلوية تطوى ليلها ونهارها في ظلال بيت تجمعت فيه صفات الانسانية ، وخصال الرحمة والوفـــاء تغرف من بحر عالم لم ينضب ، وتشب في ضفافه شمائل البطولة ويزهر على شواطيه الكرم ، بما يؤهلها لأن تكون مثلى النساء بعد أمها فاطمة الزهراء .

فمن حضن إلى حضن .. ومـن كف إلى كف ، تنتقل في مدارج صباها من محمد إلى علي.. وتدب مع فاطمة سيدة النساء ، والجليلات من أهل هذا البيت الرفيع ، وترافق الحسن والحسين ريحانتي الرسول ، وتقتبس من كل انسان كريم المحتد ، عريق الايمان ، رائع الخلق ، طاهر السريرة ما شدت بها عود أيامها المرهقة ، وصقلت بفضلها مواهبها النادرة ..

بداية الغيوم

وفي زخم هـذا الفيض من الحنان والأمل الذي لم تنله أي امرأة من قبل زينب في شوطها الأول من حياتها ، فقـد روع قلبها حزن فجزعت له ، وسهد عينيها مصاب فتأثرت عليه .

ذلك اليوم الحزين الذي ودع جدها رسول الله (ص) دنياه وفاضت روحه الطاهرة ، ورأسه في حجر أبيهـا علي ، وهي حينذاك في عمر للورود ، لم يسع قلبها ضيم ، ولا عينيها ألم .

وما كاد ذلك اليوم يغرب على البيت الطاهر ، وهو يعاني من هول المأساة ما يعجز عنه الوصف ، حتى هبت عليه العاصفة ثأر في جوانبـه ، وتثير اللوعة في نفوس ساكنيه ، ورسول الله بعد لم يوسه في قبره .

وزينب – وإن كانت في سنها صغيرة ، لكنها في عقلهـا كبيرة – تفهم وتعي ما يدور حولها ، وتشعر بما يجري من تآمر حول هذا البيت الذي طهره الله من الرجس ، ورفعه في العالمين .. فقد مرت الأحداث تنفث سمها ، وتبعث بلهبها لتكوي بيت علي بكل ما يشيب الطفل .

وفجأة ينقطع الشيخ أبو معاذ عن الحديث ، ويرتسم على

وجهه ظل حزن ، وتبدو عليه قافلة الهموم ، واحسب انه كان يعاني من ذكريات هـذه الفترة المرة ما أوقفه عن الاسترسال في حديثه .

لقد تذكر « سقيفة بني ساعدة » وكيف دارت « وقائعها » بسرية فائقة ، ثم تلتها أحداث الخلافة ، وانتهت بالهجوم على بيت فاطمة ، وحرق بابها ، وكسر ضلعها ، واسقاط جنينها ، وغير هذا وذاك أمور تمزق الأفكار جزعاً ، وتودع النفوس رعبا.

تدور هذه الذكريات سراعاً في ذهن الشيخ أبو معاذ. وكأنى به وهو يصارع الآما نفسية حادة ، لا يدري أيسدل الستار عليها ، أم يذكرها لسامريه ، وفي كلا الحالتين أخطار وأخطار .

وترتفع الأعناق متطلعة إلى وجه الشيخ !. لماذا هذا السكوت المفاجىء ؟. وتكاد تقرأ من خلال تجاعيد وجهه مدى المعاناة التي يعيشها هذا الشيخ في خضم المأساة المروعة .. ثم يسترجع الرجل ويعود لحديثه ، ويفضل أن لا يثيرها عجاجة تعمي العيون ، وتقرح القلوب .

لقد باتت زينب وسط هذا البيت الذي تراكمت عليـــه الأحداث ، وتوالت عليه المصاعب واحدة تلو الآخر ، فأحالته إلى ليل مظلم مؤرق ، وصباح مجروح قاتم .

وطوى البيت العلوي أضلاعه على أكثر من ألم .. ووسد في صدره أكثر من جراح .. هذا ولم تطو الأيام أحزانها بعد على

ذكرى وفاة خاتم المرسلين .. وكان ما كان .. وأهم من ذلك كله أن تكون تلكم المآسي والأحداث سبباً أن تعتل سيدة النساء فاطمة ، وتثقل عليها العلة ..

وكأن القوم تناسوا قول نبيهم العظيم فيها :
« يا فاطمة ،ان الله عزوجل يغضب لغضبك،ويرضالرضاكِ »
ومرة أخرى يقول :

« إنما فاطمة بضعة مني ، يريبني ما أرابها . ويؤذيني مـــا آذاها » وغير هذا كثير وكثير ..

وقد أشاح القوم في كل هذا في ساعة المحنة ، واقتلعوه من أذهانهم كي لا يوخزهم ضمير ، أو يجرحهم عهد .. ومهما كانت النتائج فإن ابنة محمد قد لاقت ما لاقت في هذه الفترة ما هـــد حالها ، ولم تدم معها العلة . طويلا ، فقد لملمت نفسها من هذه الدنيا غير آسفة ، لتفد على رب كريم ، وهي تحمل في طيات قلبها أكثر من شكوى ، وعلى أضلاعها أكثر من مصاب ، وفي عينيها أكثر من جراح .. وكان ذلك بعد أبيها الرسول بثلاثة أشهر على أبعد الروايات ، وقيل بشهرين، وقيل بأقل من هذا.

ما أروع الشبه بين الأم والبنت في الظروف القاسية التي تمر بهما .

فبالأمس دعت الزهراء في بيتها ، وهي تشهد المآسي بأقسى صورها تطوف في أرجائه ، عند فقدها :

عمها أبو طالب الحنون ، وأمها خديجة البطلة .. فقد انطفأ نورها في عام واحد،وبات ذلك البيت يرزح تحت وطأة كابوس عام تجلله الأحزان .

واليوم ، تودع زينب في بيتها ، وهي تعيش المأساة بكل مرارتها عندما فقد أبوها عزيز ين غاليين عليه ،كانا له كما يكون المطر للزرع املاً وغناءً وعطاءً ، وها :

جدها محمد رسول الله ، وأمها فاطمة الزهراء .. فقد انتقلا إلى الدار الآخره في عام واحد ، وبات ثقل المصاب يهز الليل والنهار أرجاء البيت ، الذي كرمه الله ، فطهره من الرجس ..

وزينب وهي الطفلة التي عاشت في جو ملىء بالحنـــان والعطف كيف لها أن تحمل حزن فراق أمها ، وآلام فقد جدها العظيم .

ومحمد رسول الله جد ، ولا كالأجداد ، فهو لعلى خلق عظيم وهو مثال العطف والإنسانية ، وقد تفيأت في ظلاله الوارف ما شد عودها .

وفاطمة بنت محمد أم ، ولا كالأمهات ، سيدة نساء العالمين حباها الله من كريم الصفات ، ما انفردت بهـــا ، وتميزت عن غيرها ، وقد شبت في أحضان هذه الأم الرؤوم ، وهي بعد لم تتعد ميعة الصبا .

ومع أن زينب ــ بعد أن رزح البيت بهذه المصائب ــ كانت

موضع اهتمام جميع أهل البيت في المقدمة والدها الامام علي ، وأخويها الحسنين وكانوا يحرصون كل الحرص أن لا تشعر الطفلة بعمرها،الكبيرة بعقلها بثقل هذه المصائب ، وكوارث الأيام ، والتي داهمت هذا البيت مرة واحدة .

ومرت الأيام تطوى الليل ، وتستنزف النهار . وبدأ قلب الطفلة يكبر، ويتسع لتحمل الأحداث ، وأخذ ذهنها يستوعب ما يدور حول بيتهـا الكريم من مصاعب وآلام .. فلم تعد ـ رغم صغر سنها ، وحداثة عمرها ـ طفلة تقضي نهارها مـع اترابها ، تتحلق مع لداتها في أحضان الليل تسمر كما يسمرون، وتمرح كما يمرحون ..

زينب تختلف عن اقرانها كثيراً ، فقد أصبحت شيئاً آخر ، فرضه الزمن عليهـا ، عملتها الظروف أكثر مما كانت تطيق .. ومهما تكن فابنة الزهراء لم تتهرب من المسؤولية ، ولم تستسلم لأقدار الأيام .. هي هي ، كأمها حينما حملت مسؤولية أبيها يوم أسلمت أمها خديجة الكبرى نفسها إلى خالقها ، وحتى بعد أن تزوج الرسول (ص)ليخفف عن ابنتهفاطمة أعباء المسؤولية، لكن لم يكن كما أراد .. ففاطمة هي الأول والأخر .

وعلي كذلك فرغم أنـه تزوج ليخفف عن ابنته عقلية بني هاشم أتعابه ويرفع عن كاهلها شيئاً من مسؤوليتها اتجاهه، لكن لم يكن كما أراد .. فزينب هي الأول والأخر له..

ما أروع الاخلاص هذا لدى الأم والبنت ، وما أعظم هذا الوفاء عند البنت والأم ، وما أسمى هذا الشبه في المثل العليا بين هاتين الكريمتين .

وتحملت عقيلة بني هاشم مسؤولية بيت علي ، وعاشت في خضم المشاكل والأحداث ، ويكاد هذا البيت ينفجر من الأحداث ، فالأقدار تتواثب عليه ، والنوائب تصليه .. ومع هذا كله فعلي لم تزعزعه العواصف ، ولا تهزه الأحداث ، رغم أنه يجول من حالكة إلى حالكة ، ومن مأساة إلى مأساة .

وقلب زينب أخذ يتسع لكل هذه ، وأكثر منها .. ولا غرابة .. فهي ابنة علي ، الرجل الصلد ، الذي قارع القدر بقلب رجل ، وصمد للحوادث القاصمة بقوة بطل ، وتحمل من جراء هذا أو ذاك ما يذيب الجبل ، وهو كالطود ، لا ينهار ولا يذوب .

وأشبال علي عليهم السلام على شاكلته ، وزينب واحدة من تلكم الأشبال ، وإن كانت أنثى .. وألف رجل لا يعادل امرأة مثل زينب حملت البطولة على كتفيها تجسدها بأجلى مظاهرها ، ويصمد قلبها للنوائب بأفضل ما يصمد له الأبطال في ساعة الوغى ..

ولا مثار للتعجب من زينب ، فهي غصن من ذلك المحتد الذي ما عثر الذل على مقعد فيه ..

وكلما تقدم بها الزمن انضجتها الأحداث ، وقوّت قابليتها الشجاعة الفائقة ، وعلمتها النوائب كيف تستقبلها بقلب ثابت ، وحنان ماؤه الصبر ..

انها فرع من بيت علي الصامد الصلد ، فلبناته ما وضعت واحدة فوق الأخرى الا ليكون حيث الدنيا على مر التاريخ .

ايماناً .. بطولة .. إنسانية .. رحمة .. مثل عليـــا .. جهاداً .. قداسة ..

موكب العرس

وبعد حقبة من الأعوام ، ورغم تعاسة الأيام ، فقد شبت زينب ، وبلغت مبلغ النساء ، وبزغ اسمها على لسان اسرتها ، وعرفت بالعقيلة أو عقيلة بني هاشم ، لأنهـــا كريمة قومها ، وعزيزة بيتها ، وألح الطالبون يدها على أبيها ، وهي حفيدة الرسول ، وابنة علي ، ووريثة الزهراء ، وأخت الحسنين ، وأي فضل أكثر من هذا ، وقدراً أعلى من هذا .. وقد روى عمر بن الخطاب مرة قائلاً :

« سمعت رسول الله يقول : كل سبب ونسب وصهر منقطع يوم القيامة الا سببي ونسبي وصهري » .

إذاً فليس غريباً أن يتقدم إليها — كما يتحدث الراوون — الأشعث بن قيس ، من رؤساء كندة ، ويطلب يدها من أبيها الامام أمير المؤمنين علي عليه السلام ..

وقالوا عنه : « رغم أنه كان فاتكاً شجاعاً قوياً ، لكنه اخمل حسباً وأوضع نسباً ، إذا قيس حسبه ونسبه بقريش ، وإذا قيس بأهل البيت كان أكثر ضعة ، ولكن الخليفة أبا بكر تلطف عليه ، فقربه منه ، وزوجه أخته أم فروة ، فصارت

للرجل بهذه المصاهرة جرأة على عظماء الرجال حتى الخلفاء » .

وبهذا الاعتبار تقدم من الامام علي يخطب منه عقيلة الهاشميين لكن علياً – ولم تخف عليه نفسية الرجل – نهره قائلاً : أغرب .. أغرب . أغرك ابن أبي قحافة حين زوجك أم فروة ..

ولم تكن الكلمة يسيرة على ابن الأشعث ، فقـــال الإمام : وهل كانت الا اخت خليفة ..

فرد الامام عليه : انها لم تكن من الفواطم والعواتك .

وغضب الأشعث ، ولمح لعلي بأنه لا ينسى رده وانه الفاتك الشجاع .. لكن الامام ابن أبي طالب استصغره ، واشاح بوجهه عنه ، وهو يرد عليه :

« أبا لموت تهددني ؟ فوالله ، ما أبالي أوقعت على الموت ، أم وقع الموت عليّ .

وجر الأشعث أذيال الخيبة ، وخرج من الامام ، وتوعد أن يشفي حقده منه ، عندما يحين الحين . والمستقبل لهم بالمرصاد .

والامام حينما رد الاشعث افهم الباقين بأن الباب موصده أمامهم فلا يطرقها أحـد بعدئذ ، كما أعقب ذلك بقوله عدة مرات :

« بناتنا لبنينا ، وبنونا لبناتنا » .

وهذه الصراحة كافيـــة لأن تصد الطالبين يد زينب ،

وتوقف الحاحهم ..

ان الامام علي لا يغره مـــال ، فهو يقول : « يا صفراء ويا بيضاء غيري » ، ولا يعوزه جـــاه ، ومن ذا يكون أرفع من علي قدراً ، ومحتداً ، وشرفاً إنما يريد عليه السلام لابنته الكفوء . والكفوء عند عليّ ليس بالمال والجاه .

وتقدم اليه عبدالله بن جعفر بن أبي طالب – وهو الكفوء – لعقيلة بني هاشم.. وابعاد الكفاءة نتلمسها عند عبدالله من خلال ابويه ، وقسط من سيرته .

فأبوه جعفر بن أبي طالب .. ويحدثنا المتحدثون بـــأن أبا طالب قد افتقد محمد (ص) – وكان كافـــله – في إحدى الليالي ، ومر شطر منه ، ولم يعد محمد – وذلك قبل إعـــلان الدعوة – وقلق أبو طالب ، وشاركته زوجته فاطمة بنت أسد بذلك ، وساورها شيء من القلق عليه ، أكثر من قلقها على ولدها علي الذي كان معه ، ومر الثلث الثاني من الليل ، وهدأت الانفاس ونامت العيون ، وبيت أبي طـالب ساهر ينتظر رؤية محمد ولم يعد . وأخذ يسأل عنه كالملهوف ، انه يخشى عليه من قريش المتكالبة على حرب محمد ، وصب الأذى عليه .

ولم يهدء أبو طالب ، ولم تستقر فاطمة بنت أسد ، والليل يكاد يودع سماره ، وشيخ الأبطح لم تغمض له جفن ، وأمر ولده جعفر بـأن يحمل سلاحه ويخرج معـه ليبدأ البحث عن محمد .

وطلع عليهما الفجر ، وهما في بعض جبال مكة ، وإذ بمحمد في أعلاه ، واقف يصلي ، وعلي إلى يمينه يتبعه في حركاته يركعان ويسجدان .

وخشع قلب الرجل الحنون .. وسرت الطمأنينة تدق أبواب نفسه الرحيمة ، واسترد أنفاسه ، وارتاح لهذا المنظر ، وما لبث أن أخذ يد ولده جعفر ، وأوقفه إلى يسار محمد ، وقال له : « صل جناح ابن عمك » .. وانساب الفتى اليافع مع ابن عمه رسول الانسانية ، وأخيه يركع ويسجد ، حتى أكملوا جميعاً صلاتهم ، فالتفت الرسول إلى جعفر قائلاً :

« يا جعفر ، وصلت جناح ابن عمك ، إن الله يعوضك عن ذلك بجناحين تطير بهما في الجنة .

وإذا اشتد سعير قريش على أصحاب النبي (ص) في بداية دعوته وأذاقوهم أنواع الأذى ، والألم ، أمرهم النبي أن يتركوا مكة ويهاجروا إلى الحبشة خوفاً على دينهم وأنفسهم ، وكان جعفر من المهاجرين الأوائل إلى الحبشة ومعه زوجته أسماء بنت عميس .

وإذا ما توسع الاسلام ، وأخذ يدك حصون المشركين عاد جعفر إلى المدينة وأقبل على رسول الله يوم فتح خيبر ، فاستقبله محمد ، وهو يقبله ويقول له :

«ماأدري بأيها أنا أشد فرحاً أبقدوم جعفر ،أم بفتح خيبر» .

ودارت الأيام وجعفر يشب مع ابن عمه، وينتهل من نمير، ويتحلى بأخلاقه، حتى يقول فيه الرسول الأعظم: «اشبهت خلقي وخلقي»..

وجعفر كان قائد المسلمين في غزوة موتة، وقطعت يداه في المعركة وجل همه أن لا تنتكس راية المسلمين، فاحتضنها بعضديه يجول بها، ثم يسقط صريعاً في ساحة الشرف يدافع عن عقيدته.. ويصل الخبر إلى النبي (ص) فيتأثر، وتدمع عيناه ويدعو له:

«اللهم ان جعفراً قد قدم إلي أحسن الثواب، فاخلفه في ذريته بأحسن ما خلفت أحداً من عبادك في ذريته».

وإذا كان هذا والد عبدالله بن جعفر وبهذه المنزلة الرفيعة، وما ذكر قليل من كثير، فمن هي أمه؟..

وأمه: أسماء بنت عميس الخثعمية، من المهاجرات المؤمنات هاجرت إلى الحبشة مع زوجها جعفر لتحفظ دينها، وتصون نفسها من شر الأعداء.

وبعد أن اشتهر جعفر، وتزوجها الخليفة أبو بكر فولدت له محمداً ثم تزوجها بعد ذلك الامام علي عليه السلام، فولدت له عونا ويحيى.

قال لها عمر بن الخطاب مرة - وهو يريد أن يحط من قدرها - نعم القوم انتم لولا أن سبقناكم إلى الهجرة:

فذكرت ذلك إلى النبي (ص) فقال :

« بل لكم هجرتان : إلى أرض الحبشة ، وإلى المدينة » .

وأسماء معروفة بالتقى والصلاح ، وقد عبر عنهـــا الامام الصادق عليه السلام بـ « النجيبة » وترحم عليها بقوله : « رحم الله الأخوات من أهل الجنة ، وعد أسماء في مقدمتهن .

وإذا كان هذان أبواه . فمن هو ؟

لقد حفلت به المصادر التاريخية ، وعرفته بأنه شخصية فذة لها مكانتها ومنزلتها . وعد تارة من أصحاب الرسول ، وأخرى من أصحاب الامام علي ، وثالثاً من اصحاب الحسن ، وأخيراً من أصحاب الحسين عليهم السلام .

والكرم والجود من شمائـــل عبدالله ، حتى لقب بـ « بحر الجود » ، وقد ذكر أنه لم يكن استحي منه ، ومـــرة قصده صاحب حاجة عند عمه الامام علي (ع) أمير المؤمنين فقضاها ، وما كان من صاحب الحاجة إلا أن أرسل لعبدالله مبلغاً يصل إلى أربعين ألف دينـار مكافأة ، فلم يسل لعابه لهذا المبلغ الضخم ، بل رده عليه قائلا : « انا لا نبيع معروفاً » .

وجود ابن جعفر يفتقر إلى نهاية ، فهو معطاء كريم النفس ، لا يقف كرمه عند حد ، يقول أحد الشعراء فيه :

وما كنت إلا كالأغر ابن جعفر
رأى المال لايبقى ، فابقي له ذكرا

وفي اخلاصه لبيت عمه الامام علي (ع) يصل إلى حدالتفاني فقد حدث مرة ان كان في مجلس معاوية بن أبي سفيان ،وكان يضم – أيضاً عمرو بن العاص ، فأشار معاوية لابن العاص أن يغمز ويلمز بعلي بن أبي طالب ليخفف بذلك عن حقده لعلي وأهل بيته .. فتكلم ابن العاص ونال من علي (ع) وثلبه ،ومس به دون رحمة .

وانتفض عبدالله وانفجر عليه أمـــام معاوية بما أسكته ، واضطر معاوية أن يحاول ارضاء ابن جعفر فقال : يا أبا جعفر أقسمت عليك لتجلس لعن اللهمن أخرج ضب صدرك من وجاره، فلو لم يكن مجدك ومنصبك لكان خلقك وخلقك شافعين لك الينا ، وأنت ابن ذي الجناحين وسيد بني هاشم .

وثـار عبدالله في وجه معاوية ، وارتعدت فرائصه، وصرخ قائلا : كلا يـا معاوية ، سيد بـــني هاشم الحسن والحسين ، لا ينازعهما في ذلك أحد ..

ويسكت معاوية على مضض ، ويغص بريقه ، ويمتقع لونه ، وتبدو على وجه ابن العاص سحابـــة خزي دكناء ، ويتبادلا النظرات فقد كان يعتقد أن ابن جعفر قـد يلين ، وينفر ، ويتأثر ، ويسيطر عليه .. لكن الظنون خابت ، فابن جعفر يحمل نفس أبيه بين جنبيه ، وهو مخلص ، بتفاني حب ولدي عمه ، يراهما أمامين ان قاما وان قعدا .

والتفت معاوية إلى ابن العـاص – بعد أن فارق ابن جعفر مجلسه – وقال له: يا أبا عبدالله، ما تراه منعه من الكلام معك؟

قال ابن العاص : ما لا خفاء به عنك .

قال معاوية : أظنك تقول انـــه هاب جوابك ، لا والله ، ولكنـه ازدراك ، واستحقرك ، ولم يرك للكلام أهلا .. أما رأيت إقباله على من دونك زاهداً بنفسه عنك .

فقال ابن العاص : وهل لك أن تسمع ما أعددته لجوابه .

قال معاوية : اذهب اليـــك أبا عبدالله فلات حين جواب سائر اليوم .

هكذا كان عبدالله بن جعفر من جميع جوانبه انساناً له شخصيته المرموقة ومنزلته الرفيعة ..

ولا غرابة إذا رأيناه يتقدم لعمه علي يطلب يـــد ابنة عمه زينب وعلي ينتظر الكفؤ لابنته، فيوافق على زواجه منها.

كيف لا يكون ابن جعفر كفوءاً ، وهو ابن الطيار ، وقد تربى في بيت علي، ومع الحسنين وقد سمع من النبي (ص) وروى عنه . واصدقها الامـام كصداق امها فاطمة الزهراء (أربعمائة وثمانين درهماً) من خالص ماله

وزفت إلى بيت ابن عمها ، لتسرج فيه – بعد زمان شموعاً تضيء الدنيا بأنوارها الزاهية .

وزحفت البركة على ابن جعفر مع زينب ، فوفد عليـــه

« الرزق من المـال والولد ، وامتلاك الضياع ، وفاضت أرضه بالثمار ، والغـلات ، ووفد أهل المدينة ، وأبناء السبيل في حاجاتهم على بابه : باب زينب بنت الزهراء ... ثم ما لبث أن جعل السخاء بينه وبين الأجواد سباقاً فى أرضاء العلى ، واهلاك المال ، فسبقهم جميعاً ، فسماه الناس – بحر الجود – » .

ولم تحاول عقيلة بني هاشم أن تمنع زوجها السخي من سبيل السخاء ولم تحاول أن تكف يده عن هذه الخصام . وقد حاول الحسنان مرة ، واشفاقاً عليه أن ينصحاه ، عسى أن يخفف مما اعتاد من البذل والعطاء وقد يصل إلى حد الاسراف، فقالا له :

« انك أسرفت في بذل المال » .

فقال لهما : بأبي وأمي انتما ، إن الله قد عودني أن يتفضل علي وعودته أن أتفضل على عباده ، فأخاف أن أقطع العادة ، فيقطع عني بركته ..

ورغم أن زينب عاشت في بيت الزوجية ، لكن الزواج لم يشغلها عن تحمل مسؤوليات بيت أبيها علي ، فهي بنت الزهراء ، وحفيدة خديجة وتحمل المسؤولية من خصال ربات هذا البيت.

وزينب عقيلة بني هاشم ، وسيدة البيت العلوي ، وزعيمة القوم رغم أنها تزوجت ، وانتقلت إلى بيت ابن جعفر إلا أنها لم تتخل عن المسؤولية ، لتدير بيت أبيها ، وتهتم بشؤون أخويها ، وتصبح المسؤولة بهم أولاً وآخراً ..

صبح الأحزان

كانت السماء رائعة هذا المساء ، وقد عاد الشيخ أبو معاذ إلى سماره يتابع لهم حديث عقيلة الهاشميين ،البطلة الفذة وهم بلهفة وشوق لسماع المزيد من أخبار ابنة علي ..

فزينب لم تعد زينب الأمس ، فقد أصبحت ربة بيت ، وان كانت من قبل ربة بيت ، وزواجها قد صقل شخصيتها ،وجعلها متكاملة وأصبحت مشاركتها في فصول المصاعب والآلام ،وهي من مشاقها ما يميزها عن الأمس ..

تعيش كل ما يمر من أتعاب وآلام ، وأفراح وأحزان ، فهي وريثة أمها الزهراء ، وكبيرة بنات علي عليه السلام ، وشخصية هذه الأسرة ، ويحكم مكانتها في البيت العلوي ، فان هذه المرأة أصبحت هي المعنية بعامة شؤون هذا البيت .

وقد تحالفت معها الأقدار ، فما كانت تطبق جفنها على مأساة وحادثة تلم بها ، حتى تلوح لها حادثة جديدة ، ومأساة أخرى ،وصارت تعاني كل هذه الأزمات بقلب ثابت كبير رغم انها امرأة .

وإذا عاشت مصائب فقد جدها الرسول ، وأمها الزهراء ،

وما حدثت في تلك الفترة من أزمات في ظل الطفولة ، وبقيت صور المأساة عالقة في ذهنها تمص رؤاها ، وتستنزف دموعها ، فان الأحداث التي مرت بها في عهد أبيها ،وعهد أخويها الحسن والحسين ، قد عاشتها بكل تفكيرها .

وكان أول تلكم الأحداث ما رافق خلافة أبيها الامام علي عليه السلام وإذا كانت الاقدار خذلته فيما مضى عن تحمل مسؤولية الخلافة رغم النص على خلافته من الرسول الأعظم (ص) ، وأبعدته عن هذا المنصب ، وكان ما كان .. فان الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان القت بمقاليدها اليه ، طائعة أو كارهة، وهو يحاول أن يتجنبها لاجبنا ، ولا خوفا ، انما تجنباً لمشاكل يعلم بها الامام انها ستحدث حتما ان تولاها .. وقبض على بيت المال ، فالأهواء ، والعواطف ، والجاه ، والقربى لا محل لها في نفسه ، انما هي سواسية ، لا فرق لأبيض على أسود إلا بالتقوى .. أنه ميزان الحق ، وهذا ما لا يرضا به القوم .

وعلي شديد لا يلين في تحقيق الحق ، ولا يهادن الباطل ، وسياسته معروفة وأمره غير خفي .. وكيفما كان فقد تولى الخلافة باصرار من المسلمين ، وهو غير عاجز عنها ، ولا جازع منها ، ولكنه جاءها على مضض .

ولم تمر الأيام الأولى ، حتى اندلعت نيران الغيرة بوجه أبي الحسن لتحرق الأخضر واليابس ، دون رحمة وشفقة .. وكانت

بدايتها حركة السيدة عائشة ، وهي تثيرها عاصفة طائشة .فما ان سمعت بتولي ابن أبي طالب الخلافة ، حتى صرخت :

« والله ليت أن هذه انطبقت على هذه – تعنى السماء على الأرض – ان تم الأمر لعلي .. قتل والله عثمان مظلوماً ، والله لاطلبن بدمه » .

وقالوا :

« أثارتها فتنة عمياء صماء انتقاماً من علي ذاك الذي لم تسالمه أبداً منذ دخلت بيت محمد(ص)صبية في العقد الأول من عمرها ، ولم تنس له قط انه زوج فاطمة بنت خديجة ، الودود الولود، التي شغلت من قلب رجلها – في حياتها وبعد مماتها – مكاناً لم تستطع عائشة بكل شبابها ، وجمالهـــا ، ونضرتها وحيويتها ، وذكائها أن تزحزحها عنه » .

وكانت هذه بداية مرعبة ، أزت في وجه الامام علي (ع) ، ولو شاء أبو الحسن أن يعطي من دينه لدنياه قليلا لكفكف عنه العاصفة ، لكن أبا الحسن لا تأخذه في الله لومة لائم ، ولم يشاء لنفسه أن يخادعها ، فيستميل هواها ليحفظ له منصباً على حساب دينه .. لا أبداً ، فهذا غـــير معقول في حساب أبي الحسن ، ولتثيرها السيدة عائشة وجماعتها عجاجة تظلم لها الدنيا ..ومهما كانت النتائج فما دام هو على بينة من أمر دينه ، فـــلا يهمه ذلك .

وكانت « معركة الجمل » ، ولا يهم الضالعين في هذه الحركة التآمرية على الاسلام أن يصاب الدين بنكسه طالما أن الوصول إلى النفع والمصلحة الشخصية هي الغاية .. »

ولسنا في صدد اعادة التاريخ ، فالحديث ذو شجون ، فان البداية كانت قاسية ، لأنها صدرت من أشخاص كانوا على معرفة تامة بعلي بن أبي طالب عليه السلام ، وعلى مقربة من الرسول (ص) ، ومعرفة جيدة بأفكاره ، وإذا كان العتاب واللوم لا يلقى له مجالاً في أمر معاوية لماله من سابقة على الاسلام والمسلمين من مواقف تدل دلالة واضحة على حقد هذا البيت الوضيع على البيت الهاشمي العتيد .

إذا كان العتاب واللوم يقف عند باب البيت الأموي ، لا يريد أن ينهار على هذا البيت الذي ما عرف للحق فيه شبح ، لكن العتاب ينساب بعنف على السيدة عائشة ، وطلحة ، والزبير ، لأنهم يختلفون عن معاوية وابن العاص ، ومروان بن الحكم ، الوزغ ابن الوزغ ، هذه البطانة التي نمت على الباطل .

وأسدل الستار على معركة الجمل وذيولها ، ونتائجها المرة ، وان كان المستفيد منها الرئيسي ، هو معاوية بن أبي سفيان ، وقد انعكست على اطماعه التوسعية ، وآماله العريضة ، وان كان الأسلوب المطالبة بدم الخليفة عثمان .

ثم كانت « صفين » .. وإذا سالت الدماء في معركة الجمل بين

المسلمين وتحمل مسؤوليتها من كان سبباً فيها ، فإن أحـــداث صفين ، التي كان بطلها معاوية فقط ، كان يدفعه حقد قديم ، وطمع واسع .. وقد واتته الظروف بأن يقحم أنفه بالمعركة مطالباً بدم عثمان ، بعد أن فتحت له الباب زوجة الرسول الأعظم (ص) وصاحبيه طلحة ، والزبير .

وإذا كانت واقعة الجمل قد تكشفت حقائقها ، وخمد لهبها ، رغم الدماء التي سالت فيها ، فإن « صفين » قد شقت المسلمين ، وفتكت بهم ، تركـــت النار تستعر من يوم اندـــلاعها حتى الآن ..

وان معاوية وابن العاص قد استغلا الظروف القاسية التي كان يعيشها المسلمون بعد واقعة الجمل ، وسذاجة الشاميين ، وانطلاء الخديعة عليهم بالمطالبة « بالثأر للخليفة » عثمان .. والحقيقة لم يقتله غير معاوية وزمرته والسيدة عائشة وجماعتها ، ولعلنا لم ننس صرخاتها هنا وهناك ، وعلى مرأى ومسمع من المسلمين « اقتلوا نعثلا قتله الله » .

ودارت رحى الحرب بين المسلمين في « صفين » وراح ضحيتها الصحابي الجليل « عمار بن ياسر » ، الذي قال فيه النبي (ص) : « يا عمار تقتلك الفئة الباغية » ، ولما لاحظ معاوية أنه منكسر لا محالة ، وجيش العراق متفاني في قتاله ، لجأ إلى الخداع والمكر برفع المصاحف والتحكيم ، وأخضع الامام على إلى

التحكيم .. وأجبر الامام علي إلى التحكيم ، وأجبر الامام علي اختيار أبي موسى الأشعري ، ممثلا عن جيش العراق ، والامام يخبر الجميع عن ضعف هذا الرجل ، وعدم قابليته لهذه المهمة

واضطر الامام أن يخضع لأصرار السذج من الناس ،وبحجة حقن الدماء بين المسلمين - وهو عالم بالنتائج مسبقاً - .. ولو عاد الناس إلى رشدهم ، وتجردوا من عصبيتهم ، وقارنوا بين ابن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، ومن وراءه ابن العاص ، واضرابه اعموا الناس ، وتلفعوا بالحيلة .. وأخيراً حققوا ما أرادوا .

ووضح الامام علي الحقيقة للجهلة من قومه ، والمغفلين من اتباع غيره ، عسى أن تنفع معهم العظة ، فقال في خطاب له فيهم .

« أما بعد ، فان الله بعث نبيه (ص) ، فانقذ به من الضلالة ، وحفظ به من الهلكة ، وجمع به بعد الفرقة ، ثم قبضه الله اليه ، وقد أدى ما عليه ..

ثم استحلف الناس أبا بكر ، ثم استخلف أبو بكر عمر ،وقد وجدنا عليهما أن توليا الأمر دوننا نحن آل الرسول ، واحق بالأمر ، ولكنا غفرنا ذلك لهما .

ثم ولي أمر الناس عثمان ،فعمل باشياء عابها الناس عليه ،فسار اليه ناس فقتلوه ، ثم جاءني الناس وانا معتزم أمرهم ، فقالوا لي :

بايع فأبيت عليهم .. ثم عادوا فقالوا لي : بايع فان الأمة لا ترتضي إلا بك ، وانا نخاف ان لم تفعل أن يفترق الناس ، فبايعتهم .

فلم يرعني الاشقاق رجلين قد بايعاني – يقصد طلحة والزبير – وخلاف معاوية اياي .. هذا الذي لم يجعل الله له سابقة في الدين ولا سلف صدق في الاسلام .. طليق بن طليق . دخلا في الاسلام كارهين مكرهين .

واني أدعوكم إلى كتاب الله ، وسنة نبيكم .. أقول قولي هذا .. واستغفر الله لي ولكم » .

لم يكن الموقف بحاجة إلى شرح ، فالكل على علم بالأمر ، ولكن الامام أبي الحسن ، أكد على شرح الموقف ، وبصراحته المعهودة ، وأسلوبه الجدي ، لكي يلقى الحجة ، ويطمئن من التبليغ .. ولكن من السامع ، ومن الواعي ؟ ومعاوية خدو النفوس ، وملأ الأذهان بما أراد .

وهنا يلح سؤال ؟ .

« ترى لو لم يتبوأ علي منصب الخلافة ، أكان معاوية سيحمله دم عثمان .. ؟ »

ويقولون :

« كلا .. وانما كان سيتجه باتهامه إلى الخليفة الآخر إلا إذا ممن يرضى عنهم معاوية ، ويطمع في طيهم تحت جناحه » .

وأقول : لا . فحقد معاوية دفين ينحدر من أبائه واجداده لآل البيت (ع) وخصوصاً للامام ، فله معه حساب طويل ، ومهما طال الأمد ، ومما تعددت الأسباب ، فعلي ابن أبي طالب كما قالوا عنه .. « ..وانما ميزان كل شيء عنده هو الحق والعدل .. فما كان من لوث وعدل فهو ضنين به ، وحريص عليه . وما كان من باطل وزور فهو عدو له ، حرب عليه . لا يحيد أبداً عن قول الله تعالى : « ما كنت متخذ المضلين عضدا » ..

وانحسر القناع أخيراً عن آلاف من المسلمين راحوا ضحية اطماع معاوية ، وكيد ابن العاص ، وانفرجت أسارير الطاغية ، وقد بلغ مراده ، وكسب المعركة ، وندم من ندم ، وفرح من فرح ، وحزن من حزن ..

ولملم الغروب اشلاء في صفين ، فقد طحنت الحرب عدداً قد لا يتصور ، فقد قيل : انه قارب العشرين والمئة الف .. وانتهت المأساة بالصورة التي ذكرها التاريخ دون رحمة وشفقة.. وأدرك زعيم الأمويين بعض ثاره من الهاشميين . وان كان هذا لا يجديه ، ففي الصدر مخزون بأكثر وأظهر ..

وإذا خمدت نار الثأر في نفس معاوية زمناً قصيراً ، فقد انفجرت على الامام ثغرة جديدة ، رقص لها قلب أبى يزيد فرحاً ، وراح يغذيها بالخفاء لتهز كيان الخلافة العلوية من جديد..

تلك هي « حركة الخوارج »

وبداية أمرهم : ان الامام عندما عاد من صفين إلى الكوفة، بعد التحكيم ومأساته وقد حدث ما حدث ، وتعمق د الفعل في نفوس الكثيرين من أصحاب الامام الذين أجبروه على قبول التحكيم ، واختيار الأشعري الضعيف النفس ، الخائر الذهن وكانت النتيجة تلك المؤامرة الرهيبة التي حبكها ابن العاص ، ولم يرض قسم من المسلمين بذلك، فطلبوا عندها من الامام العودة إلى القتال .. لكن الامام صاحب كلمة شرف قالها ، ولن يحيد عنها .. وهو القبول بنتيجة التحكيم مهما كانت النتائج ما دام الرأي العام الملتزمت لم يخضع لقانون المحاسبة الصحيح ..وانتهت بالدعوة إلى وقف القتال في صفين ..

وأخذت هذه الأعداد الهائجة على نتيجة التحكيم – بعد أن خذلها الأشعري ، فخلع صاحبه دون مبرر ، وثبت ابن العاص صاحبه بأسلوب واخر ، وتكشفت الخديعة – تصر على الامام بالحرب ، ثم يتطور الأمر حتى يصبح خروجاً على حكم الامام .

« والذي يتتبع خطوات الخارجين على التحكيم ، يجد أن الذين قادوا هذه الجماعة أول الأمر، كانوا أكثر الناس ولاء لعلي، وأحرصهم على سلامة دينهم ، وأشدهم زهداً في الحياة ، وفيما يقتتل عليه الناس من متاعبها .

كان هذا هو شأن الجماعة الخارجة في أول أمرها .. ولكن ما إن تنعزل عن النـــاس ، وتتخذ لها جهة خاصة بها ، حتى تنحرف عما عليه جماعة من المسلمين وحتى ليحلها العناد والشقاق على أن تشتط ، وتمعن في الشطط ، وإذا هي خارج دائـــرة الإسلام، تستحل دم المسلمين جميعاً،وتستبيح أموالهم وأعراضهم دون تقية أو حرج » .

وأعلنت هذه الفئة شعارها « ولا حكم إلا لله » .. والتف حول الخارجين عدد غير قليل بحيث أصبحوا قوة لا يستهان بها ، فخرجوا إلى ظاهر الكوفة ليتخيروا لهم مكاناً يجتمع فيه من كان على رأيهم .

تباً لهذه الفئة التي عاثت بالمسلمين فسادا من دون ذنب ،وفتكوا بالنساء من دون رحمة ، وروعوا الأطفال من دون شفقة .

لقد أرسل لهم الامام علي عبدالله بن عباس ليقف على جليـة أمرهم ويكشفهم للمسلمين :

قال ابن عباس لهم : ما الذي نقمتم على أمير المؤمنين ؟

قالوا : قد كان المؤمنين أميراً فلما حكم في دين الله ، خرج من من الإيمان فليتب بعد اقراره بالكفر تعدُ له .

فقال ابن عباس : لا ينبغي لمؤمن ، لم يَتُب إيمانه شك أن يُقر على نفسه بالكفر .

قالوا : انه قد حكم .

قال : إن الله عز وجـل ، أمرنا بالتحكيم في قتل صيد ، فقال عز وجل : « يحكم به ذوا عدل منكم » فكيف في إمامة ، قد اشكلت على المسلمين ؟

قالوا : إنه قد حُكم عليه فلم يرض .

قال : الحكومة كالامامة ، ومتى فسق الامام وجبت معصيته وكذلك الحكمان ، لما خالفا ، نُبذت اقاويلهما .

فقال بعضهم لبعض : لا تجعلوا احتجاج قريش حجة عليكم ، فإن هـذا من القوم الذين قال الله عز وجل فيهم : « بل هم قوم خصمون » ، وقال عز وجل : « وتنذر به قوماً لدّا » .

ولاحظ الامـــام أن القوم لم ينفع معهم الوعظ والحديث ، وانهم ركبوا هواهم فضلوا عن السبيل .

وانفجر البركان بعـــد أيام قليلة ، فقد تجمع الخوارج عند «النهروان» واستعدوا للقتال ، بعد أن عاثوا فساداً في المسلمين ، وخرج لهم الامـام بجيشه ، وقبل أن يناشدهم القتال ، خطب فيهم قائلا :

« ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة ، وأخبرتكم أن طلب القوم مكيدة وأنبأتكم أن القوم ، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ؟ ، وإني أعرف بهم منكم ، وقد عرفتهم أطفالاً ، وعرفتهم رجالاً ، فهم شر رجال ، وشر أطفال ، وهم أهـل المكر والغدر .

« وإنكم فارقتموني ورأيي ، جانبتم الخـــير والحزم ، فعصيتموني ، وأكرهتموني حـــتى حكمت ، فلما ان فعلت ، شرطت ، واستوثقت ، وأخذت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ، وأن يميتا ما أمات القرآن ، فاختلفا ، وخالفا حكم الكتاب والسنة ، وعملا بالهوى ، فنبذنـا أمرهما ، ونحن على أمرنا الأول .

، فأنبؤكم ، ومن أين أتيتم ؟ .

« فقالوا : إنا حيث حكمنا الرجلين اخطأنا ، وكنا كافرين وقد تبنا من ذلك ، فإن شهدت على نفسك بالكفر ، وتبت كما تبنا وأشهدنا ، فنحن معك ومنك ، والا فاعتزلنا ، وان أبيت فنحن منابذوك على سواء .

« فقال (الإمام) : أبعد إيماني بالله ، وهجرتي ، وجهادي مع رسول الله أبوء وأشهد على نفسي بالكفر ؟ لقد ضللت إذن وما أنا من المهتـدين ويحكم . بما استحللتم قتالنا ، والخروج من جماعتنا .

فتنادى الخوارج فـيما بينهم : لا تخاطبوهم .. لا تكلموهم ، الرواح إلى الجنة .. الرواح إلى الجنة ..

وزحفوا على جيش علي – كما تقول الرواية – شدة رجل واحد ، وقلوبهم كزبر الحديد ..

ووقف الإمام علي (ع) أمام جيشه ، وهو يقول لأصحابه :

« لا تبدؤهم حتى يبدؤكم » .

يقول الراوى : فلما اثخنوا في أصحـــاب علي ، استقبلت الرماة وجوههم بالنبل ، ثم عطفت عليهم الخيل من الميمنة والميسرة ، ونهض علي في القلب بالسيوف والرماح ، فما لبثوا فواقا (أي ما بين الحلبتين للناقة أو الشاة) حتى صرعهم الله ، كأنما قيل لهم موتوا ، فماتوا » .

وسألت أرض « النهروان » بالدماء ، كما فاضت من قبل في « صفين » وكما طفحت قبلها في « البصرة » غزيرة ، وكأنها لم تكن دماء المسلمين ، ذات حرمة وكرامة ..

ومن المسؤول عن هذه النفوس التي راحت ضحية هـــذه الحروب ؟. هل ابن أبي طالب الامام والخليفة ، أم من خرج عليه ، محارباً أمام زمانه ؟!.

وما يستريح أبو الحسن من وعثـاء هذه الدنيا التي وقفت له بالمرصاد وهي توصيه بأثقالها واحدة تلو الأخرى . وكأنها لم تر شخصاً يحل مأساتها على كتفيه بقلب مؤمن ، وروحية عالية غير الامام علي بن أبي طالب (ع) ، وهو ذلك الطود الذي لا يهاب الموت ، ولا يلين في سبيل الحق .

وإذا كان لابد للانسان من لحظة يشكو فيها ، ويخفف من جمرتها ، فالامام لا يشكو لأحد إلا لابن عمه رسول الله (ص) ، فقد روى عن الإمام الحسن أنه قال :

« أتيت أبي : فقال لي : أرقت الليلة ، ثم ملكتني عيني ، فسنح لي رسول الله (ص) فقلت له : يا رسول الله ماذا لقيت من أمتك من الاود واللدد - أي العرج والخصوبة - قال: أدع عليهم ، فقلت : اللهم أبدلني بهم خيراً إلى منهم ، وأبدلهم بي شراً لهم مني » .

هذه هي الشكوى التي حملها أبو الحسن في أعماقه ، وبثها لابن عمه ، وباني مجده ، وهو بهذا قد أفرغ كل ما في نفسه على القوم ، وهو مع ذلك رحيم بهم ، رؤوف عليهم ، يطلب من الله سبحانه أن يبدلهم به شراً لهم منه ..

وهكذا كان .. فلم تمر الأيام حتى يصرعه عبد الرحمن بن ملجم ، وهو منقطع إلى خالقه في محرابه يناجيه ، والفجر في بداية عمره .. وكأن الله قد اختار له هذه النهاية الرائعة ليربط حاضره بماضيه ، ونهايته ، ببدايته .. فقد ولد عليه السلام بالكعبة ، وقتل في مسجد الكوفة .

ولم يكن الإمام علي وحده قد ذاق مرارة هذا العهد الحافل بالمصاعب والآلام ، فإن أولاده ، ومنهم عقيلة الهاشميين، وأهل بيته قد ذاقو نفس المرارة .. فعاشت زينب هذه الفترة المرهقة ، وهي تعاني الأحداث كما لو كانت هي المصابة بكل تلك الأحداث ، شأنها شأن أبيها علي عليه السلام وأخويها الحسن والحسين .
فقد انتقلت زينب من المدينة إلى الكوفة ، تبعاً لانتقال

مركز الخلافة وكان بمعيتها زوجها وأولادها ، لتعيش على مقربة من الإمام ، فهي وإن كان الامام قد تزوج بعد أمها فاطمة ، وتحملت مسؤولية الأب من تحملت ، لكنها بصفتها الإبنة الكبرى لعلي فإنها صاحبة الكلمة النافذة ، وبيدها الادارة العامة .

ثم شاركت بكل حواسها الأحداث ، ومشاكل الحركات التي ثارت في وجه أبيها ، فتشهد أباها أمير المؤمنين يخوض المعركة تلو المعركة ، ويفرغ من وقعة « الجمل » ليلقى معاوية في جيش الشام « بصفين » ثم لم يمسح يده الطاهرة من أتعاب هذه المأساة حتى يصارع الأقدار في « النهروان » ، وهكذا في مدى خمس سنوات عجاف قاسية ، وأخيراً تراه صريعاً في محرابه بسيف الشقي ابن ملجم ..

هذه الأحداث كلها تمر على زينب ، وتقف منها ، وكأنها مسددة إليها فعاشتها كأي إنسان يتحمل مسؤولية ، زادت عليها مسؤولياتها الخاصه في تصريف الأمور عندما انصرف الامام وولداه إلى ساحة الميدان في هذه الوقائع الثلاث .

« أتيت أبي : فقال لي : أرقت الليلة ، ثم ملكتني عيني ، فسنح لي رسول الله (ص) فقلت له : يا رسول الله ماذا لقيت من أمتك من الاود واللدد - أي العرج والخصوبة - قال: أدع عليهم ، فقلت : اللهم أبدلني بهم خيراً إلى منهم ، وأبدلهم بي شراً لهم مني » .

هذه هي الشكوى التي حملها أبو الحسن في أعماقه ، وبثها لابن عمه ، وبانى مجده ، وهو بهذا قد أفرغ كل ما في نفسه على القوم ، وهو مع ذلك رحيم بهم ، رؤوف عليهم ، يطلب من الله سبحانه أن يبدلهم به شراً لهم منه ..

وهكذا كان .. فلم تمر الأيام حتى يصرعه عبد الرحمن بن ملجم ، وهو منقطع إلى خالقه في محرابه يناجيه ، والفجر في بداية عمره .. وكأن الله قد اختار له هذه النهاية الرائعة ليربط حاضره بماضيه ، ونهايته ، ببدايته .. فقد ولد عليه السلام بالكعبة ، وقتل في مسجد الكوفة .

ولم يكن الإمام علي وحده قد ذاق مرارة هذا العهد الحافل بالمصاعب والآلام ، فإن أولاده ، ومنهم عقيلة الهاشميين، وأهل بيته قد ذاقو نفس المرارة .. فعاشت زينب هذه الفترة المرهقة ، وهي تعاني الأحداث كما لو كانت هي المصابة بكل تلك الأحداث ، شأنها شأن أبيها علي عليه السلام وأخويها الحسن والحسين .

فقد انتقلت زينب من المدينة إلى الكوفة ، تبعاً لانتقال

مركز الخلافة وكان بمعيتها زوجها وأولادها ، لتعيش على مقربة من الإمام ، فهي وإن كان الامام قد تزوج بعد أمها فاطمة ، وتحملت مسؤولية الأب من تحملت ، لكنها بصفتها الإبنة الكبرى لعلي فإنها صاحبة الكلمة النافذة ، وبيدها الادارة العامة .

ثم شاركت بكل حواسها الأحداث ، ومشاكل الحركات التي ثارت في وجه أبيها ، فتشهد أباها أمير المؤمنين يخوض المعركة تلو المعركة ، ويفرغ من وقعة « الجمل » ليلقى معاوية في جيش الشام « بصفين » ثم لم يمسح يده الطاهرة من أتعاب هذه المأساة حتى يصارع الأقدار في « النهروان » ، وهكذا في مدى خمس سنوات عجاف قاسية ، وأخيراً تراه صريعاً في محرابه بسيف الشقي ابن ملجم ..

هذه الأحداث كلها تمر على زينب ، وتقف منها ، وكأنها مسددة إليها فعاشتها كأي إنسان يتحمل مسؤولية ، زادت عليها مسؤولياتها الخاصه في تصريف الأمور عندما انصرف الامام وولداه إلى ساحة الميدان في هذه الوقائع الثلاث .

الضحى القائم

وواصل الشيخ أبو معاذ حديثه للسامعين فقال :

في ظل الأحداث الجسام التي رافقت خلافة الامام علي (ع) عاشت زينب ، وهي بحكم مركزها في البيت العلوي ، تختلف عن باقي النساء ، وإذا كانت ما رافق وفاة جدها، وأمها من أحداث ، فقد شابتها السنون ، فخففت غلواءها ـ وإن كنت لا أعتقد ذلك ـ فمصابها بأبيها قد جدد تلكم الأحزان .

ولو انتهت فصول المآساة إلى هذا الحد لكانت زينب تطوي أحزانها بين أضلاعها ، وتحتسب ذلك كله عند الله .. لكن سلسلة المصاعب والأحزان لم تنته ، وإن حقد الأمويين لم يهدأ ، وإن الأحداث تترى ، كأنما كتب على هذا البيت أن لا تهدأ له أنة ، ولم تجف له دمعة .

فما ان وسد الامام علي في ملحود قبره،وبويع الامام الحسن بالخلافة حتى شمر معاوية عن ساعديه لينقض على الإمام الحسن، فيصفي حسابه معه والأمر ليس بالسهل اليسير ـ كما يتصور ـ فالإمام أبومحمد نصعليه أبوه بالخلافة من الرسول الأعظم(ص).

فقد ذكروا أن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام منذ أن

اعتل أمر ولده الحسن أن يصلي بالناس ، وأوصى اليه عند وفاته ، بعد أن اشهد على وصيته ألحسين ، وجميع ولده ورؤساء شيعته ، وأهل بيته ، ودفع اليه الكتاب والسلاح ، ثم قال :

« يا بُنى : أنت ولي الأمر ، وولي الدم ، وقد أمرني رسول الله ان أوصي اليك، وان ادفع اليك كتبي وسلاحي ، كماأوصى إليّ رسول الله ودفع إلي كتبه وسلاحه ، وأمرنى أن آأمرك ، اذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين » .

ثم أقبل على الحسين فقال : « وأمرك رسول الله أن تدفعها إلى ابنك هذا » ، ثم أخذ بيد علي بن الحسين وقال : « وامرك رسول الله أن تدفعها إلى ابنك محمد ، فاقرأه من رسول الله ، ومني السلام » .

سمعت زينب هذه الوصية ، ووعتها جيداً ، ولم تكن عنها بمعزل ، فأبوها في أخريات ساعاته يوصى ، وأخوها الحسن وبقية أخوتها ، وأهل بيته يسمعون ويعون ، وهي معهم في كل خلجات أبيها ، وهو يصارع الموت ، وينازع نفسه ..

وارتسمت في ذهنها صور المستقبل المظلم ، ماذا سيكون الموقف الجديد ؟ القوم هم القوم . والطاغية الذي أثار الناس لا زال طاغية ،والظروف التي أولدت المأساة هي الظروف لم تتبدل .. وأخوها الامام الحسن كما تعرفه : روح أبيها علي بين جنبيه ،لا يجامل ولا يلين ، والحروب الثلاثة التي مرت بعهد الامام الراحل

قد اتعبت الناس ، واثقلت عليهم آلامهم ، فقسمتهم إلى أحزاب وأصناف ، ذهبت بهم بعض المصادر إلى أربعة كما سيمر علينا .. وانفصام المرى لدى مجتمع يتألف من عناصر متباينة في الفكر ، والأسلوب ، والعقيدة ، والمستوى الخلقي يحدث بكل سهولة ، وان هناك من يدس في الصفوف ويساعد على تحطيم وحـــدة الكلمة بين المسلمين .

وكيفما كان فقد تمت البيعة للامام في الكوفة ، ثم أعقبتها بقية مدن العراق ، ثم توالت بقية المدن تعلن بيعتها ، فبايعـه « الحجاز واليمن على يد القائد العظيم جارية بن قدامة ، وفارس على يد عاملها زياد بن عبيد ، وبايعه — إلى ذلك — من بقي في هذه الآفاق من فضلاء المهاجرين والأنصار ، فلم يكن لشاهد أن يختار ، ولا لغائب أن يود ، ولم يتخلف عن بيعته — فيما نعلم - الا معاوية ومن اليه ، واتبع بقومه غير سبيل المؤمنين ، وجرى مع الحسن مجراه مع أبيه بالأمس ، وتخلف أفراد آخرون عرفوا بعد ذلك بالقعاد » .

ولم يهن هذا الاجماع في مبايعـــة الامام الحسن على معاوية وزمرته الضالة المضلة ، الـتي لم تعرف من الاسلام إلا الاسم ، ومنهم ابن العاص ، ومروان بن الحكم واحزابهما الذين يعرف عنهم المسلمون ، بأنهم دخلوا الاسلام كرهاً ، وعاثوا فيه فسادا .

وكمثل واحد على ذلك ، لنقرأ هذه الفقرات .

روى عن زيد بن ارقم وعبادة الصامت مرفوعاً إلى رسول الله (ص) انه قال :

« إذا رأيتم معاوية وعمرو بن العـــاص مجتمعين ، ففرقوا بينهما ، فانهما لن يجتمعا على خير » .

وتذكر السيدة عائشة لمروان بن الحكم مرة ، انها سمعت رسول الله (ص) يقول للحكم وأبيه ـ أبي العاص بن أمية ـ «انكم الشجرة الملعونة في القرآن » .

وفي رواية أخـــرى قالت عائشة لمروان « لعن الله أباك ، وأنت في صلبه فأنت بعض من لعنه الله ، ثم قالت : وأنـــتم الشجرة الملعونة في القرآن » .

هؤلاء وأحزابهم كونوا جبهة المعارضة للامام ابي محمد الحسن عليه السلام وهؤلاء هم أنفسهم كانوا زعماء المعارضة من قبـــل للرسول في بداية الدعوة ثم للامام علي في خلافتـه ، ولهذا لم يعجب النـــاس حينما أعلنوا العصيان على الامام الحسن ، ولم يبايعوه بالخلافة ، وقد أجمعت الأمة المسلمة على مبايعته ،وبمرور الأيام ، ومعاوية ينمي هـــذه المعارضة بكل امكانياته المادية وأفكاره الجهنمية ، حتى تمكن من فتح ثغرة لذاولج منها إلى قلوب الكثير من النفعيين في الكوفة ، وأصحاب المصالح والجاه ، والذين نقموا على الإمـــام علي (ع) من قبل ، والذين باعوا ضمائرهم للباطل ، وإذا بالكوفة بعد برهة من الزمن قدأصبحت

تتجاذبها آراء متعددة ، وأحزاب متضاربة ،وعواطف متصارعة هددت الكيان الإسلامي ، وبذرت جذور الخلاف فيها .

وطبيعي يسري هذا التيار إلى غير الكوفة ، بعد أن نشطت المعارضة وقوى مركزها ، هنا وهناك . وذلك بسبب السياسة التي يتبعها معاوية وبطانته في استحالة ذوي النفوس الضعيفة ، وأصحاب المصالح والأهواء ، وجلبهم بكل أساليب الاغراء .

وصنفت بعض المصادر الانقسامات التي حدثت في المجتمع الكوفي خلال تلك الفترة نتيجة للسياسة الأموية إلى :

١ – الحزب الأموي :

ولقد انتمى اليه العدد الوافر من هذا البيت ، ومن ناصره وأيده حتى أصبح قوة يضم الكثير من ذوي الجـاه والنفوذ ، وكتب كبار هؤلاء إلى معاوية يعلنون ايمانهم به ، ويطلبون منه التوجه إلى الكوفة ،وضمنوا له تسليم الإمام الحسن أو الفتك به .

٢ – الخوارج :

وهؤلاء برزوا على مسرح الأحداث منذ حادثة التحكيم ، ونصبوا المداوة للامام علي (ع) – كما تقدمت الاشارة اليهم ، وقد حاولوا في بداية خلافة الحسن أن يخضعوه لارادتهم ، لكن الإمام أبا محمد كان أقوى من أن ينهار لهذه الطغمة ، فحملوا للحسن في نفوسهم ضغناً وحقداً ، وهم إلى جانب هذا – كما يقال عنهم – «لم يقيموا ببلد يومين إلا أفسدوا كل من خالطهم» ،

وكانت لهم « أساليبهم الموثرة المخيفة ، التي كانت تزعزع ايمان كثير من النـاس بالشكوك وكان هذا هو سر انتشارهم بعد نكبتهم الحاسمة على شواطىء النهروان » .

٣ – الشكاكون :

وهم فئة من النـــاس تأثروا بدعوة الخوارج من دون أن يكونوا منهم « وكانوا طائفة من سكان الكوفة ، ورعاعهـا المهزومين ، الذين لا نية لهم في خير ، ولا قدرة لهم على شر ، ولكن في وجودهم لنفسه كان شراً مستطيراً وعوناً على الفساد وآلة مسخرة في أيدي المفسدين » .

٤ – الحمراء :

ويبلغ عددهم عشرين ألفاً من مسلحة الكوفة ، تجمعوا من موال وعبيد ، ومن أولاد السبايا وغيرهم ، وتسميهم بعض المصادر « بالمهجنين » وهم شرطة زياد ، الذين فعلوا الأفاعيل بالشيعة عام ٥١ هجرية وحواليها ؛ وكان في البصرة مثل ما في الكوفة من هؤلاء المهجنين الخ ..

هذه هي الحالة المزرية التي كان يعيشها المجتمع الكوفي من الإنقسامات والإتجاهات تحول دون اجتماعهم على كلمة .

ولا يغرب عن البال بأن الكوفة كانت تضم إلى جانب هذه الفئات مجموعة لا يستهان بها تتشيع لعلي وآله ، وقد لاقت هذه الطائفة من العنت والإضطهاد ما لاقت .

ومن الواضح أن المجتمع المثقل بهذه التيارات المتعاكسة ، لا يمكن له أن يلملم نفسه ، ويوحد كلمته ، خاصة وأن هناك من حشد قواه ، وسخر طاقاته من أجل أن يزيدهم تفريقاً ، وعداوة ، بعد للخليفة ، والامام المنتخب .

وكان هذا الوضع واضحاً لدى الإمام الحسن ، وأخيه الحسين ، وآل البيت والصحابة بكافة أبعاده وسلبياته .. ولقد تكلم مع الإمام الحسن أكثر من واحد على شن الحرب على معاوية ، والتصدي لمؤامراته ، ولكن ظروفه السياسية المعاشة كانت لا تساعده على التصدي للمؤامرات ، وشن الحرب على معاوية . ولعله كان يدرك — وهو بعيد الغور — ان مظهر القوم له ، وفي الحقيقة عليه .. إلا صفوة من خلص أصحابه ، وبهؤلاء لم تنهض الحرب .

بيد أن الزمن بدأ يطوي الأيام والليالي بأسرع مما يتصور ، فاستعجل الأحداث ، واضطر الإمام الحسن لإعلان الحرب على معاوية .. وبداية الحرب الكلام .. فقد كتب إلى معاوية كتاباً يقول فيه :

« .. ولقد كنا تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا في حقنا ، وسلطان بيتنا ، وإذا كانوا ذوي فضيلة وسابقة في الإسلام ، أمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين ان يجد المنافقون والأحزاب في ذلك مغمزا يثلمون به ، أو يكون لهم بذلك سبب إلى ما

أرادوا من افساده .

« فاليوم فليتعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله ، لا بفضل في الدين معروف ، ولا أثر في الإسلام محمود ، وأنت ابن حزب من الأحزاب ، وابن أعدى قريش لرسول الله (ص) ولكتابه والله حسيبك ، فسترد عليه ، وتعلم لمن عقبى الدار ، وبالله لتلقين عن قليل ربك ، ثم ليجزينك بما قدمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد » .

وينتهي الكتاب إلى قوله :

« فدع التمادي في الباطل ، وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي فانك تعلم اني أحق بهذا الأمر منك عند الله ، وعند كل أواب حفيظ ، ومن له قلب منيب ، واتق الله ، ودع البغي ، واحقن دماء المسلمين ، فوالله مالك خير في أن تلقى الله من دمائهم بأكثر ما أنت لاقيه به ، وادخل في السلم والطاعة ولا تنازع الأمر أهله ، ومن هو أحق به منك ليطفىء الله الثائرة بذلك ويجمع الكلمة ، ويصلح ذات البين .

« وان أنت أبيت إلا التمادي في غيك ، سرت اليك بالمسلمين فحاكمتك ، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » .

وهذا الكتاب من الإمام الحسن تضمن فيما تضمن انذاراً صريحاً إلى معاوية بالزحف ، واعلانها حرباً شعواء ، وهو أمر ليس فيه غرابة من الأمام فالأسلوب العلوي واضح وصريح ، لا

يعرف المداهنة ، ولا المجاملة .. والحسن نبعة من علي (ع) لن يختلف عنه قدر ذره .

ومعاوية لم يكن في موقف ضعف كي يسكت على هـــذا الوعيد والتهديد ، ولا بالحائر الذي لا يملك من المقدرة بحيث لا يقابل العنف بالعنف ، والوعيد بالوعيد . ولهذا رد على رسول الإمام الذين حملا له هذه الرسالة قائلاً : «ارجعـا إلى الحسن ، وأخبراه ، بأنه ليس بيني وبينه إلا السيف » .

وأخذ كل من الجانبين في الإستعداد للحرب ..

وفي خلال فترة الإستعداد كان مجلس الحسنين ، وهمـــا يتناجيان ويلقيان الضوء على مستقبل هـــذه الأمة ، ودخلت زينب ، عقيلة بني هاشم على أخويها ، فاستقبلاها بما يهدىء خاطرها ، لكن ابنة علي ما كانت لتخفي عليها خافية ، فهي تعلم بوضع الكوفة ، وخلق أهلها ، والضمائر الرخيصه التي تعشعش فيها ، والضعفاء الرعاديد الذين يتظاهرون بالحرب ، وهم أجبن من أن يلاقوه .

توجهت زينب إلى أخيها أبي محمد تخاطبه .. وفي قلبها تكتم أكثر من لوعة وزفرة —

«أصممت يا أبا محمد على الحرب ؟ »

ورد عليها الإمام الحسن ، وهو لا يرفع عينيه عن أخيـــه أبي عبدالله :

« نعم يا أختاه ، ولا سبيل لنا إلا اقتحام الحرب »

وزينب عارفة بتركيبة الكوفة ، وخلق أهلها ، فقالت :

« وهل خبرت الكوفيين وأخذت رأيهم ؟ » .

ولمس الحسنان نبرة الأسى والحذر في حديث زينب ، فحاولا أن يبددا هذا الهاجس الخفي الذي سيطر على ذهنها ، فقال الإمام الحسن :

«وإن الله كتب الجهاد على خلقه ، وسماه كرها ، ثم قال لأهل الجهاد : اصبروا إن الله مع الصابرين » .

وجمدت الكلمات على شفتي العقيلة ، وفرت البسمة ، وبدا على وجهها ظل من وجوم ، لم تكن خائفة ، ولا وجلة ، ولا هيابة ، عاشت الأحداث وعاشت ويلات الحروب ، وكبر قلبها على محن المدينة والكوفة .. لا يهمها كل ذلك . أبداً انها ابنة علي ، غير انها تريد أن تقيم الموقف قبل مجابهته ..

وبلغها أن الإمام الحسن قد خطب في أصحابه بجامع الكوفة ، وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أما بعد ، فإن الله كتب الجهاد على خلقه ، وسماه كرها ، ثم قال لأهل الجهاد : اصبروا ان الله مع الصابرين ، فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون الا بالصبر على ما تكرهون ..

وقد بلغني أن معاوية بلغه انا ازمعنا على المسير إليه فتحرك .. لذلك اخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم في النخيلة حتى ننظر وتنظرون ، وترى وترون » .

فسكت الناس ، ولم يتكلم أحد منهم ، ولا إجابة بحرف..

وهز الموقف سيد طيء وزعيمها عدي بن حاتم – وقد عرف بولائه لعلي وصحبته للرسول – فانتفض صارخاً في قومه – وفي عشيرته الف مقاتل لا يعصون له أمراً – :

« انا عدي بن حاتم ، مـا أقبح هـذا المقام ، ألا تجيبون أمامكم ، وابن بنت نبيكم ؟ أين خطباء المصر الذين السنتهم كالمخاريق في الدعة ، فاذا جد الجد راوغوا كالثعالب ؟ أمـا تخافون مقت الله .. »

ثم استقبل الإمام الحسن بوجه ملؤه التصميم والإيمان قائلا:
« يا أبا محمد ، أصاب الله بك المر اشد ، وجنبك المكاره ، ووفقك لما يحمد ورده وصدره ، وقد سمعنا مقالتك . وانتهينا إلى أمرك ، وسمعنا لك ، واطعنا فيما قلت ورأيت » .

ولم يكتف بذلك ، بل أعلن موقفـه الذي حرك أصحاب الحسن ، وبدل الموقف ، وقال :

« يا معشر المسلمين ، وهذا وجهي إلى معسكرنا فمن أحب أو يوافي فليوافي ، ومن تقاعس فحسابه مع الله » .
وخرج من المسجد ، وركب دابته ، ومضى إلى النخيلة ، وأمر غلامه أن يلحقه بما يحتاج .
وتحرك الموقف ، وطافت فيه موجة حماس ، وتوالى الخطباء احداً تلو الآخر ، وكلموه بمثل كلام صاحبهم ، وتحشد المسلمون

للزحف إلى النخيلة .

وعندها التفت الامام الحسن (ع) اليهم قائلاً :
« رحمكم الله ، ما زلت أعرفكم بصدق النية ، والوفاء ، والمودة فجزاكم الله خيراً » .

هذه الصورة بكل أبعادها عاشتها عقيلة بني هاشم ، وتابعت تطورات الموقف باهتمام وحذر ، تسبر اغوار الحرب المقبلة .. وفي قلبها الف غصة وغصة .. فلا مجال للمناقشة ، وقد صمم أخوها ، وهو امام مفترض الطاعة .. فلا بد أن تخضع للواقع .. وبقيت ترقب الموقف على مضض ...

ولم يكن الإمام الحسن مبالغاً في التقدير فان شيعة أبيه — وهم الصفوة الذين صدقوا في الموالاة ، وأخلصوا في الإلتزام — هم أنفسهم اليوم مع ولده الحسن ، نفس الولاء ، ونفس الإلتزام ، والإمام مطمئن منهم ، لكن هؤلاء لم يكونوا كل الناس ، انما هم أفراد ، وعلى أكتافهم تقوم فكرة الحق أما بقية الناس فإنهم ينعقون مع كل ناعق .

ولهذا فما ان تحرك الإمام الحسن إلى النخيلة ، حتى تخلف عنه خلق كثير لم يفوا بما قالوا ، ولم يبروا بما وعدوا . وكان لهم موقف محدد تماماً كما فعلوه مع الإمام علي (ع) ، وغروه كما غروا أمير المؤمنين من قبله ..

ولم يخرج من المسلمين إلى النخيلة إلا أربعة آلاف ، مما اضطر

الإمام الحسن إلى العودة إلى الكوفة ، ليستنفر الناس ، ولكن المحاولات لم تجد ومع هذا فلم يتوان الإمام عن تنفيذ ما قرر ، وكر راجعاً إلى معسكره وكان عليه أن يعين قائداً لجيشه ، واختار عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب .

واختياره لهذه الشخصية لم يكن اعتباطاً ، فقد تلمس فيه عدة مرجحات كل واحدة منها تكفي للاطمئنان باخلاص لقضيته ، ووفائه لامامه ، وأهم تلكم المرجحات هي :

١ – أنه من أبناء عم الامام ، ويرتبط به بأواصر القربى ، وعرف هذا بولائه للإمام علي .

٢ – ان هذا الشخص له حساب عسير مع معاوية ، لا يمكن التغاضي عنه ،وهو أن عبيد الله كان والياً للامام علي على اليمن، وجاء ابن أرطاة من قبل معاوية بجيش لجب ، فهرب منه عبيد الله ، وانهارت اليمن ، ولم يكتف القائد الأهوج بهروب الوالي، انما أراد أن يشفي نفسه الحاقدة من مجد الامام علي ، وارضاء سيده معاوية بأي لون كان ، فتعقب من تخلف من بيت عبيد الله ، فوقع بيده ابنا عبيد الله وهما لم يتجاوزا عمر الورود ، فقتلهما شر قتله ، وحنا يديه الآثمة من دمائهما ، وأرسل برأسيهما إلى معاوية .

وهذه الحادثة من الطبيعي أن تخلف أثراً كبيراً في أعماق الولد المفجوع ، ليتربص الفرص ليأخذ ثاره ، ويعيد كرامته .

كانت كل الحسابات التي وضعها الإمام الحسن في ذهنه بتعيينه عبيد الله بن العباس قائـــداً لجيشه تساعد على حسن الاختيـار .

لكن الرجل خالف التقادير ، فقد أحس معاوية بضعفه ، وولج اليه من مناطق الضعف ، وبين عشية وضحاها ،فقد تخدر القائد بالمغريات التي لوح بها معاوية له ، وانهار أخـــيراً ، بحيث ترك عبيد الله معسكر الحسن تحت جنـح الظلام ، إلى جيش معاوية ..

ولعلنا نستطيع أن نتصور مـدى الأثر السيء الذي خلفه هذا العمل الفظيع ،ومدى ما عاناه الجيش العلوى من مرّ هزيمة قائده ، وخيانته . لكن رغم فادحة النكبة التي مني بها الامام الحسن ، فقد صمد أبو محمد للعاصفة وسلم قيادة الجيش إلى قيس ابن سعد بن عبادة الأنصاري .

وقيس معروف بولائه ،وعقيدته للبيت العلوى ،وهو من صفوة أصحاب الامام علي (ع) ، ومن بقاياهم ، وهو كما يصفوه .

« شب مع الجهاد ، واستمر على الدرب اللاحب ، وأنكر على الآخرين ضعفهم حين ضعفوا ،ونقم عليهم استجابتهم للمغريات ، وعزوفهم عن الواجب » .

ورغم أن القائد الجديد أخذ يلم صفوف الجيش العلوي ، ويمحو عن وجهه آثار الخيبة التي تركتها هزيمة عبيد الله ، فان

التشاؤم بقي يغطي الأفق ، وان القلوب بقيت ترزح بثقل خطب الحادثة ، وفظاعته . ولعلنا لا نستغرب لو سمعنا أن حوالي ثمانية آلاف نفر من جيش الامام الحسن ، التحق بجيش معاوية بعد خيانة عبيد الله ، فذوي الضمائر الرخيصة ، وضعاف النفوس سرعان ما يتبدلوا .. وهكذا كان .

ان هذا البناء المؤلم بلغ مسامع عقيلة بني هاشم ، ولم تحزع منه فقد طوت حرقته بين أضلاعها ، قابلته بالحكمة والروّية ، وبدأت تفكر بماذا سيكون موقف أخيها الحُسن من بعد هذه الكارثة ، ولكن ما ان سمعت ان الاختيار وقع على قيس بن سعد بن عباد حتى دبت الطمأنينة إلى نفسها ، فهي تعرف ايمان قيس لقضيتهم ، واخلاصه لأبيها ، وقضية الحسن ، جزء من قضيتهم العامة .. قضية علي وشيعته ، أو بالأحرى حزب الحق بكل أفكاره و « أيدلوجية » .

وزينب ، وهي التي ترقب الوضع عن كثب ، كانت تحس أن وميض الفتنة أخذ يلوح بالأفق ، وان الأحداث الخطيرة بدأت تبدو رويداً رويدا ، وكان الموقف يحتم على آل علي أن لا يدعوا لهذه الحوادث في حسبانهم أي مجال ، في الوقت الذي أخذت النفوس الدنيئة تنهار امام اغراءات معاوية ، وخصوصاً بعد ان لمس طاغية الأمويين جدوى أساليبه من خلال موقف عبيد الله بن العباس ، ومن لف لفه ووفق معاوية في هذا الميدان

غاية التوفيق ، وهو لا يهمه بذل العروض السخية والتي قد لا يتصور جسامتها في سبيل تنفيذ مخططه .

ولم يكتف معاوية بما حصل للامام الحسن من خيانة قائد جيشه ، والتحاق الكثير من جيشه به ، فقد قرر ان يرمي الامام بقذيفته الثانية ، وهي التي لا تقل خطورة عن الأولى ، ليشل حركة الامام تماماً . وفعلا نفذ ما أراد فقـــد أرسل المغيرة بن شعبة ومعه وفداً الى الامام الحسن على جميع الرسائل التي وصلته من شخصيات الكوفة ، والمتظاهرين بصحبته ، ليقف بنفسه على نوايا القوم ، وتعهدهم بأنهم على استعداد لتسليم الحسن وأصحابه إلى معاوية كيف يشاء .

ولم يدهش الامام الحسن لهذا الأمر ، كما لم يتعجل الوقائع ، انه عارف بطبيعة هؤلاء ، واخلاقهم ، ولكن ما كل مايعلم يقال .

فهو يعلم أن معاوية يتصيد الفرصة ليحطم معنويات جيش الحسن بشتى الأساليب ، كطرحه موضوع التحكيم من قبل في جيش أبيه ، واستفاد منه ، وكسب المعركة ، واثار الفتنة .

وهو يعلم أن نفسية القوم متفاوتة ، وان البعض يظهر نـــه الولاء وهم يراسلون عدوه ، وبعضهم يغرهم الجاه .. ولكن الامام الحسن كان يحاول أن يوحد كلمة المسلمين ، ويبعث في نفوس البقية الباقية المعنوية .

ولقد رالت الظروف معاوية ، ففكر في تفجير قنبلته الثالثة ،

فلم يكتف بخيانة قائد الجيش العلوي ، وبمواجهة الامام الحسن بدخائل بعض أصحابه ، وتعهدهم له بأنهم علي استعداد لتسليم الامام كيف شاء .

كانت قنبلة معاوية قوية جداً ؛ تماماً كموضوع التحكيم في معركة الصلح وشقته جيش الحسن ، تلك هي فكرة الصلح . فقد دس في صفوف الجيش من يدعو إلى الصلح ، لتحقن الدماء ، وتخمد الفتنة ، والنفوس المريضة وذوي الأفكار الضعيفة تتأثر بأسرع ما يكون بهذه التيارات .

ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى كانت الشائعات المتضاربة المدسوسة من معاوية تأكل جيش الامام ، وعلى كل الجبهات .. وعندها رمى الحسن ببصره إلى جيشه الممزق ليراه ولم يبق معه إلا الثابت المؤمن ، وهو مجموعة لا يبلغ خمس جيش معاوية ، فأية سياسة عسكرية أن يزج بهذا القدر غير المتكافىء في آتون الحرب .

وقد برع معاوية في اثارة الفتنة في صفوف جيش الكوفة ، فقد أشاع حديثاً عن رسول الله مفتعلا ـ وما أكثر من استأجرهم معاوية لوضع الأحاديث لتبرير أعماله ، ودعم موقفه مقابل المال الوفير ـ وهو : « ان الحسن ريحانتي ، وانه سيد سيصلح الله به بين فئتين من المسلمين » .

وتحكمت هذه الفكرة بين الجيشين ، واضطر الامام بحكم

مركزه المتأرجح أن يخضع للصلح ، كما خضع أبوه للتحكيم ، وهو يعلم مسبقاً بنتيجة الصلح ولكن ما حيلة المضطر .

ولقد سأله الحسين بعد أن صمم على عقد معاهدة الصلح :

« ما الذي دعاك إلى الصلح ؟ » .

فرد عليه .

« الذي دعا أباك فيما تقدم » .

هذا جانب : وجانب آخر يوضحه الامام الحسن لعبدالله بن الزبير عندما لامه على عقد معاهدة الصلح مع معاوية، فيرد عليه بكل صراحة ، وبدون لبس .

... وتزعم اني سلمت الأمر، وكيف يكون ذلك ـ ويحك ـ وأنا ابن أشجع العرب ، وقـــد ولدني فاطمة سيدة نساء العالمين ، لم أفعل ذلك جبناً ، ولا ضعفاً ، ولكنه بايعني مثلك، وهو يطلبني بترة، ويداجيني المودة ، ولم أثق بنصرته » .

وقد أوجز الامام الحسن بهذين الموقفين ، وبهذه الكلمات المختصرة والأسباب الرئيسة لعقد معاهدة الصلح ، وحدد الأمر بصورة واضحة وجلية . وصمم على تنفيذ الفكرة بعد أن يأس من معالجة الموقف ، والنصر في المعركة .

ولعلنا نستطيع أن نتلمس نفس الموقف مع أبيه في حادثتين: الأولى في أمـــر الخلافة حينما قدم الانتخاب على النص ، وعند التحكيم.

وتمت معاهدة الصلح .. وكان ما كان . ولسنا الآن في صدد تحليـــل المعاهدة وطبيعتها ، وهل انها بيعة بالخلافة ، أو اتفاقية بإيقـــاف الحرب ، وبموجبها أن يكون معاوية الحاكم لأمور المسلمين ، دون الخلافة [1] .. والشيء الذي نستطيع أن نؤكده بهذه العجالة إن الامام لا يمكن بحال من الأحوال ان يبايع معاوية بالخلافة وهو الذي يقول عنه « انه ضال مضل » وإذاً كان كذلك فكيف يجـــوز له أن يوكل شؤون المسلمين الشرعية لشخصية صفته كما تقدم ، انما عقد معه هدنة حرب وصلح كي يحفظ وحدة المسلمين ، كما فعل أبوه في صفين .

ومعاوية يقولها صريحة بعد الصلح للمسلمين :

ما حاربتـــكم لتصلوا ، ولا لتصوموا ، ولا لتحجوا ، ولا لتزكوا ، ولكن حاربتكم لأتآمر عليكم » .

فهو قد وضح حقيقة طلبه بكل صراحة ، ودون مجاملة ، ولم يكن الحرب باسم الدين إلا ستاراً لبلوغ مطامعه .

وما روى عن المغيرة بن شعبة عن معاوية يعطينا أبعـاداً واسعة عن حقيقة هذه الطاغية .

يقول مطرف بن المغيرة ابن شعبة وفدت مع أبي المغيرة إلى معاوية، فكان أبي يأتيه ويتحدث عنده ، ثم ينصرف إلي فيذكر

---

١ ـ سوف نبحث الموضوع بالتفصيل في كتابنا عن الامام الحسن (ع) باذن الله ، وفي ضمن هذه السلسلة .

معاوية ويذكر عقله، ويعجب مما يري منه .. إذ جاء ذات ليلة، فأمسك عن العشاء ، فرأيته مغتماً منذ الليلة ، قال : يا بني اني جئت من أخبث الناس قلت له : وما ذاك ؟ قال : قلت له – وقد خلوت به – : إنك قد بلغت مناك ، فلو أظهرت عدلا ، وبسطت خيرا ، فإنك قد كبرت ، ولو نظرت إلى اخوتك من بني هاشم ، فوصلت أرحامهم ، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه ، فقال لي : هيهات ، هيهات ، ملك أخوتيم فعدل ، وفعل ما فعل فوالله ما عداه ان هلك ، فهلك ذكره ، إلا أن يقول قائل أبو بكر .. ثم ملك اخو عدى فاجتهد وعمّر عشر سنين ، فوالله ما عدا ان هلك ، فهلك ذكراه ، الا أن يقول قائل عمر .. ثم ملك أخونا عثمان فملك رجل لم يكن أحد في مثل نسبه فعمل ما عمل به ، فوالله ما عدا ان هلك فهلك ذكره ، وذكر ما فعل به ، وان اخا هاشم يصرخ به في كل يوم خمس مرات ، أشهد أن محمداً رسول الله ، فأي عمل يبقى بعد هذا لا أم لك ، الا دفنا دفنا » .

وهذا الحوار يكشف لنا حقيقة هذا الرجل ، وانه مادخل الإسلام هو وأبوه وأهل بيته الا كرهاً . وقد قال عنهم رسول الله (ص) :

«لو لم يبق من بني أمية إلاعجوزدرداء لبغت دين اللهعوجا».

وكيفيما كان فقد تربع معاوية على عرش العراق، بعد أن كان

نفوذه محصوراً في الشام ، ولكنه لم يكتف بهذا القدر ، انما عمل على قلب الحكم إلى ملك عضوض ، يريده لابنه يزيد ، ولا بد وهو في هذا الصدد أن يزيح الامام الحسن عن الوجود .

فما هو السبيل ؟ ..

قال مروان بن الحكم لمعاوية : أنا أضع الخطة ، وعلي رسمها ...

ومروان الوزغ ابن الوزغ كان ينتظر هذا اليوم بقلب فارغ من الصبر وسعى إلى اقناع جعدة بنت الأشعث - وهي من زوجات الحسن - بسمه ، على أن يزوجها من يزيد بن معاوية ، والإضافة إلى مائة ألف درهم .

والعطاء بالنسبة لجعدة مغري للغاية ، فهي لم تحمل لأبي محمد أي حب أو وفاء .

وأبوها الأشعث بن قيس الكندي ، عرف بالنفاق ، وأسلم مرتين بينها ردة منكرة ، ويكره عليا وأولاده ، ويحب الأمويين ، وان لم يتظاهر بحبهم ، وهو يميل نفسياً إلى عقد هذه الصفقة .

ولم تبق المفاوضات طويلا ، بل أتمها مروان ، وأيدها معاوية ، ووعدها بزواجها من ابنه يزيد .. وحققت المرأة الخائنة ما أراد ، فقد سمت الامام بشربة من العسل وانتهى الأمر .

وبلغ الخبر معاوية ، وكان بالخضراء فكبر ، وكبر معه أهل

الخضراء ، ثم كبر من في المسجد بتكبير أهل الخضراء ، يقال : فخرجت فاختة بنت قرظة بن عمرو بن نوفل – زوجة معاوية – إلى باحة القصر تسأله عن سر التكبير ، وسبب سروره ، فقال : بلغني موت الحسن بن علي . فقالت : إنا لله وإنا اليه راجعون أعلى موت ابن فاطمة تكبر !! . فقال : ما كبرت شماتة بموته ، ولكن استراح قلبي منه !!» .

وكما يقولون : العذر أقبح من الفعل ..

نعم استراح قلب معاوية عند موت الحسن ، واعتقد أن الباب فتح على مصراعيه لولده يزيد ليستخلفه من بعده ، ويحقق بذلك أحلام بني عبد شمس وهكذا كان تخطيط معاوية ومن قبله أبو سفيان .

ومهما كانت السبل الملتوية التي سلكها زعيم الأمويين في تحقيق مآربه وبلوغه أطماعه ، فسد الآذان ، وأمات البصائر .

رحمك الله يا أبا الحسن ، فان الكلمة الشامخة التي صغتها للاجيال عبر الزمن درساً يوضح حقيقة هذا البيت ، فقد انسابت اصداءها للاسماع مرهفة ، وولجت حروفها العيون مضيئة :

« يا معاوية : أما قولك إنا بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل ، فلعمري أنا بنو أب واحد .. ولكن ليس أمية كهاشم ، ولا حرب كعبد المطلب ، ولا أبو سفيان كأبي طالب ، ولا المهاجر كالطليق ، ولا الصريح كاللصيق ، ولا المحق كالمبطل ،

ولا المؤمن كالمدغل ، لبئس الخلق خلف يتبع سلفاً هوى في نار جهنم » .

وهذه الحقيقة لم تخف على معاوية ، انما كان يتغاضى عنها، ويحاول أن يغطي عليها . ونفس الموقف وقفة الإمام الحسن معه عندما اعتلى المنبر مرة ، والحسنان في المجلس ، فذكر عليا بالسبب والسوء ، ونال منه استطاع فقام اليه الحسن مخاطباً :

« أيها الذاكر عليا ، أنا الحسن ، وأبي علي ، وأنت معاوية ، وأبوك صخر وأمي فاطمة ، وأمك هند ، وجدي رسول الله ، وجدك حرب ، وجدتي خديجة ، وجدتك قتيلة ، فلعن الله اخملنا ذكرا ، والأمنا حسبا ، وشرنا قدما ، وأقدمنا كفرا ونفاقا » .

فردد الجالسون معه آمين . آمين ..

وتجاوبت الألسن مع القول الحق ، وان كانت في مجلس السلطة والطغيان ورغم انها تخدرت بمال أبي يزيد ، ومهما حاول الظالمون اخفاء الحق وطمسه فإنه يظهر ، ويعلو .

وودعت زينب عقيلة الهاشميين أخاها الحسن ، وهو يلفظ كبده من شدة السم ، وكتمت زفرتها ، ومسحت دموعها .. انها البطلة ، الصابرة لم تخلق للنياحة ، ولم تهيء للبكاء . انما هي صاحبة رسالة ، وصاحب الرسالة يتحمل في سبيلها المتاعب والارزاء .. وهي من بيت : القتل له عادة ، وكرامته من الله

الشهادة . وطريق الحق مرّ ، وان فرش بالريحان ، فكيف وقد فرش بالسيف والسم .

ولم تنتهي الحوادث المؤلمة بموت الحسن ، وما رافق دفنه من آلام جزع لها كل مخلص. فقد تسلسلت واحدة تلو الأخرى. وزينب في وسطها تعيش الضحى القاتم بكل مآسيه ، تشارك أخيها الحسين مسؤلية الرسالة التي انتقلت اليه بعد الامام الحسين

وإذا كانت مسؤولية زينب في هذا الضحى وما سبقه محدودة فسوف تحملها الأقدار مسؤولية حفظ الإمانة في المستقبل القريب ، وسوف تثبت للملأ انها البطلة القادرة على المسؤولية بقوة وثبات ، وعزم وصمود ..

وفي وسط العاصفة

وعاد الشيخ أبو معاذ إلى سماره ، والشوق يحدوهم لحديثه ، وانشدت العيون اليه ، وارهفت الآذان لسماع صوته ، وبدأ الشيخ المحدث يجمع اشتات أفكاره ، وطفت على سحنته سحابة حزن ، إن مأساة آل البيت تمزق القلوب ، وتشتت الأفكار ..

وتحدث الشيخ :

ولم يلمّ الليل عن سماره أطرافه المثقلة بأحداث الضحى الحزين حتى أفزعهم حدث جديد ، بدأ يلوح بشبح مأساة تردع النفوس ، وهي واحدة من تلكم المآسي التي لفعت البيت العلوي ، وان كانت من القسوة بمكان ..

وقد كانت زينب عقيلة الهاشميين في وسط هذه العاصفة ، تقف على مسرح البطولات بقلب أبيها ، ومعنويات أمها ، وصبر أخيها أبي محمد ، وبطولة أخيها الحسين .. وحققت ما أوكلت الينا من مهمة عسيرة وخطيرة ، الا وهي تحمل مسؤولية القضية التي ضحى من أجلها الإمام الحسين : الغالي والنفيس وما رسمه لها أخوها أبو الشهداء في نشر أبعاد نهضته الجبارة في وجه الباطل بموقف بطولي فريد .

فقد قضى الامام الحسن حياته مسموماً بأمر من معاوية ، وشمر زعيم الأمويين عن ساعديه مقتنعاً أن الفرصة حانت له ليدفع الحكم لولده يزيد .. وهو على وضوح من أمر ولده ، وانه غير جدير بهذا المنصب .. ولا قابلية له للوقوف أمام الحسين بن علي .. وإذا تمكن هو من الوقوف - بقابلياته المتعددة - أمام علي وولده الحسن عليهما السلام ، فإن ولده السادر في غيه ، والمتماجن في لهوه والمستهتر في بلاده لا يستطيع ان يقف في قبالة الحسين (ع) ولا يصمد أمامه إلا بالقوة والعنف ، والعجب العجاب .

ولهذا عمد زعيم آل أبي سفيان جاهداً إلى اجتثاث البيت العلوي ومؤيديه ، وتصفيتهم ، وحث أتباعه على مطاردة الموالين لهذا البيت ، ودفعهم بكل أساليبه الجهنمية إلى غرس شعور الكراهية والحقد في نفوس أتباعه من السواد الأعظم لهذا البيت الكريم ، ومن والاهم .

ويمكننا أن نلخص الاجراءات التي اتخذها معاوية لهذا الأمر:

١ - وضع قوماً من الصحابة ، وقوماً من التابعين على رواية اخبار قبيحة في علي عليه السلام ، تقتضي الطعن فيه ، والبراءة ومنه ، وجعل لهم على ذلك جعلا ، يرغب في مثله ، فاختلقوا ما أرضاه » .

٢ - « كتب إلى قضاته ، وولاته في الأمصار ان لا يجيزوا

لاحد من شيعـــة علي الذين يروون فضله ، ويتحدثون بمناقبه شهادة » .

٣ كتب إلى عماله في البلدان والأمصار « انظروا إلى من قامت عليه البينة انه يحب علياً ،وأهل بيته ،فامحوه من الديوان» .

٤ – وكتب لهم أيضاً « ومن اتهمتموه في حب علي وأهل بيته ، ولم تقم عليه البينة ، فاقتلوه » .

٥ – وكتب لهم أيضاً « انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ، الذين يروون فضله ويتحدثون بمناقبه فاكرموهم ، وشرفوهم ، واكتبوا إلي بمـا يروي كل واحد منهم فيه باسمه واسم أبيه ، لأبعث اليهم بالصلات والكساء .

وكانت نتيجة هذه العوامل أن تبرز ظاهرة القمع والمصادرة العنيفة لآل البيت ومن والاهم ، حتى يبلغ الأمر – وكما تصف الرواية – : « حتى كان الرجل يقتل على الظن والتهمة ، ولم تزل الفتنة تشتد ، والبلاء يزداد بعد موت الامام الحسن ، فلم يبق أحد من محبي علي إلا وهو خائف على دمه ،أو طريد في الأرض» .

وتحت وطأة الارهاب والقمع ، اصبح الجو مساعداً لتحقيق فكرة معاوية ، وحلمه المفضل ، فهو يريد البيعة لولده يزيد بأي صوره شاءت ، ولعله بدء يزرع الفكرة بين مقربية ، ويدرس طرق تنفيذها معهم .. وكان أول من بادر إلى تحقيق رغبته هو المغيرة بن شعبة .

وقال المؤرخون : وكان المغيرة والياً لمعاوية على الكوفة ، وقد بلغه أن معاوية يريد عزلـــه وسيخلفه سعيد بن العاص .. وأثار النبأ المغيرة ، وفكر في غزو معاوية وصرفه عن هـــذا الأمر ، وتلمس طريقه جيداً ، وسيكون مروراً بيزيد ، وهو متمكن من أبيه .. وشد الرحـــال اليه ، ولم يشأ لنفسه أن يستريح من وعثاء السفر .

ووصل إلى يزيد واستقبله حفيد أبي سفيان ، وهو يعرف المغيرة حق المعرفة .. وقال له المغيرة :

يا يزيد ذهب أعيان أصحاب النبي (ص) ، وكبراء قريش ، وبقي أبناؤهم وأنت من أفضلهم ، وأحسنهم رأياً ، وأعلمهم بالسنة ، والسياسة ، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين من أن يعقد لك البيعة ؟!.

وهش يزيد للحديث ، وزحف من عـــلى كرسيه ليحضن المغيرة بشيء من التقدير وأسرع لأبيه يخبره بحديث المغيرة ، ولم يخف على معاوية – وهو الداهية – قصد المغيرة ، فقد قرأ في ملامحه ، ما تنطوي عليه نفسه ، وكتم في أعماقه ضحكة ساخرة لقد مسك بأول الخيط . انه كان ينتظر أن يطرق بابه امثال هذا الماكر ، بعد أن سرب له ولأمثاله رغبته ، وأمره بادخاله عليه ، واحسن استقباله ، كما أحسن المغيرة الموقف بالتملق والمداهنة ، ولكل لدى الآخر حاجة ومآرب ، ولا بد والحالة هذه

أن يتوفر بين الطرفين عنصر المجاملة والمخادعة ، ويزيد مشدود بينهما . وفي هذه الحالة كان معاوية يسبر أعماق المغيرة ليتحسس مدى اندفاعه في هذا الموضوع ، فيرد عليه الجميل بقدره .

وبدأ المغيره بالحديث :

« يا أمير المؤمنين ، قد رأيت ما كان من سفك الدماء ، والاختلاف بعد عثمان ، وأنا أخـــاف إن حدث بك حدث أن يقع الناس في مثل ما وقعوا فيه بعد قتل عثمان ، فاجعل للناس علما يفزعون اليه ، وفي يزيد خلف ، فاعقد له ، وانا أكفيك أهل الكوفـة ، ويكفيك زياد أهـل البصرة ، وليس بعدهذين المصرين أحد يخالف » .

وكان جواب معاوية صريحاً لتنفيذ ما اندفع من أجـــله المغيرة : « يا أبا مطرف ارجع إلى عملك ، وتحدث مع من تثق اليه في ذلك ، وترى ، ونرى » .

وعاد المغيرة بالأمل ، وأصحابه في لهفة إلى حديثه ، فقال لهم : « لقد وضعت رجل معاوية في غرز بعيد الغاية على أمة محمد ، وفتقت عليهم فتقا ، لا يرتق أبداً » .

وكانت هذه بداية المؤامرة ، ثم أعقبها معاوية بحركة أخرى نفذ فيها الخطة ، فقد أسر إلى الضحاك ثم قيس الفهري أن يعلن رأيه في البيعة ليزيد عند اجتماع وفود الأمصار ، كما دعا عبدالرحمن بن عثمان الثقفي ، وعبدالله بن مسعود الفزاري ،

وغيرهما بأن يدعموا قول الضحاك عند اقتراحه المطلوب وفي اليوم التالي اكتظ المجلس بالوافدين من الأنصار، ولاحظ الضحاك أن الساعة مواتية لتنفيذ مؤامرته، فقام خطيبا في المجلس، وألقى خطبة طويلة، انتهى بها إلى قوله:

« وقد رأينا من دعة يزيد، وحسن مذهبه، وصحة سيرته ما دعانا إلى الرضا به في أمورنا، والقنوع به في الولاية علينا.. فليوله أمير المؤمنين عهده، وليجعله لنا ملجأ ومفزعا بعده نأوي إليه ان كان كون، فإنه ليس أحد أحق بها منه، فاعزم على ذلك ».

وتبارى الخطباء والمتكلمون ممن اتفق معهم معاوية على الحديث وسيطروا على مشاعر الشاميين، وتكلم غيرهم ممن لا يرى هذا.

وكثر اللغط، وتعالت الهمسات بين الرفض والقبول، وكاد الموقف يفلت زمامه، لولا أن معاوية غمز إلى أحد جلاوزته، وقال:

« يا معاوية، إنا لا نطيق السنة مضر وخطبها، أنت ياأمير المؤمنين فإن هلكت، فيزيد من بعدك: فمن أبى فهذا — وسل سيفه — بيننا وبينه ».

فقال له معاوية: أنت أخطب القوم وأكرمهم..

وتمت المؤامرة، وبايع الشاميون يزيد، وكتب عندها

إلى الأمصار يطلب تأييد البيعة لولي عهده ، ورفق هذا الطلب أمراً باستعمال العنف عند الضرورة مع من لم تشأ له نفسه أن يبايع طوعاً .

ومن جملة من كتب له معاوية واليه على المدينة سعيد بن العاص يقول له : « واظهر الغلظة ، وخذ بالعزم والشدة كل من ابطأ عن البيعة ليزيد » .

وطبيعي أن تمتد الأيدي للمبايعة ، فالقوم دوماً عبيد القوة والعنف ومعاوية لا يملك إلا السيف ، والقتل ، والا المال والرشوة ، وكلاهما عاملان لهما تأثيرها في اخضاع المجتمع .

ورغم هذا كله فإن معاوية قلق غير مستقر من ناحية البيعة لولده ونستطيع أن نتصور مدى القلق الذي يساوره من الحوار الذي جرى بينه وبين يزيد في أخريات حكمه ، يقول :

يا يزيد ، اني قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك الأشياء وذللت الأعداء ، واخضعت لك أعناق العرب .. واني لست أخاف عليك من قريش إلا ثلاثة : الحسين بن علي ، وعبدالله بن عمر ، وعبدالله بن الزبير .

أما ابن عمر : فاتركه لعبادته ، فانه رجل قد وقذته العبادة ، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك .

أما ابن الزبير : فاحذره ، و خذه بالشدة ، فانه خب ضب ، فاذا أمكنته فرصة وثب .. فان هو فعلها فقدرت عليه فقطعه

اربأ اربأ الا أن يلتمس منك صلحاً .

أما الحسين بن علي ، فانه يحمل روح أبيه بين جنبيه ، ورجائي أن يكفيكه الله بمن قتل أباه ، وخذل أخاه ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يحرجوه ..

ورغم أن معاوية يتمتع بدهاء واسع ، وقابلية كبيرة ، بحيث انه تمكن في نظر أصحابه أن يقلب الليل نهارا، وبالعكس وانه سيطر عليهم إلى درجة كبيرة ، ومع هذا فشبح الامام الحسين يطارده ، لعلمه بأن الأخير على حق ، وهو على باطل .

مضافاً إلى ذلك أن يعلم يقيناً بأن ولده يزيد لم يتمتع بشخصية قوية ، ودهاء واسع ليتمكن من مقابلة الامام الحسين ، وعلى هذا الضوء عمد إلى تصفية أصحاب الامام علي ليترك الحسين وحيداً في الميدان كما عمد إلى حشد الكثير من أولئك الذين غرتهم الدنيا ، وركضوا وراء مغرياتها .

ولقد تمكن معاوية أن يقف وبصورة واضحة على رأي الامام الحسين (ع) من رسائله التي رد بها عليه ، وجاء في إحدى رسائله ما يلي :

واتق الله يا معاوية ، واعلم أن لله كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، الا أحصاها .. واعلم ان الله ليس بناس لك قتلك بالظنة ، وأخذك بالتهمة وامارتك صبيا . يشرب الشراب ، ويلعب بالكلاب ، ما أراك إلا وقد أوبقت نفسك وأهلكت

دينك ، واضعت الرعية ، والاسلام » .

ولعلنا نستطيع أن نلمس الرفض الحسيني لامارة يزيد من خلال فقرات هذه الرسالة ، ويكفي هذا ان يثـــير في نفس معاوية الجزع والهلع ، من المستقبل المظلم الذي سيجتاح ولده يزيد من تصميم الامام الحسين على عدم قبول البيعة التي تهالك من أجلها .

وتمر الأيام والسحب الدكناء تتجمع في أفق المدينة تنذر بأخطار جسيمة في المستقبل القريب ، فالحسين كما قال عنه عدوه اللدود معاوية روح أبيه علي بين جنبيه لا يحمل ضيم ، ولا يقر على باطل ، مهما كلف الأمر .

وذات مساء أقبلت عقيلة الهاشميين على أخيها أبي عبدالله وقد أثقلتها الخطوب ، والأحزان ، وحدثته ، وهي تعبر عن كلماتها المآسي :

يا أبا عبدالله ، بلغني أن معاوية في طريقه إلى المدينة ليأخذ البيعة ليزيد ، فهل بلغك ذلك ؟

وبقلب ثابت رد عليها الإمام الحسين : نعم يا أختاه بلغني ذلك !

وسكتت العقيلة .. ولم ترغب بأن تلح في السؤال ، وبقيت تطالع في وجه أخيها ملامح الغد القاتم ..

ووصل معاوية إلى المدينة ، ومعه خلق كثير من أهل الشام ،

حتى بلغ البعض بعددهم إلى ألف فارس. وبدأ يتصل بالشخصيات ورؤساء القبائل . ومن بين من قابلهم السيدة عائشة ، وكان قد بلغها انه ذكر الحسين وأصحابه بكلام لا يجمل به أن يتكلمه، فعاتبته على ذلك ، فرد عليها بكل صلافة ، ووقاحة قائلا : لاقتله هو ومن يرى رأيه ان لم يبايع يزيد .. ولكن أم المؤمنين ، أخذت تنصحه ، وتبين له نتائج موقفه العنيف ، وما يترتب عليه من آثار سيئة ، لكنه لم يقتنع بكل ذلك ، وتركها وخرج وهو يخطط لقتل الحسين ، وتصفية شيعة علي بن أبي طالب .

وشاع هذا الخبر في أرجاء المدينة ، ولم يستغرب المسلمون منه هذا التصريح الخطير فلقد شارك في قتل الامام علي ، وسم الامام الحسن عليهما السلام ، وعمد إلى تصفية أصحابهما بأي أسلوب كان . ولا بد من تصفية الحسين ، فهو حجر العثرة في طريق استتباب الأمر لولده ، ولا بد له من تعبيد الطريق ، مهما ارتفع الثمن، وخاصة أن معاوية انسان لم يلتزم بأي قيم دينية، أو عرف يتقيد به عندما تصطدم بمصلحته .

وطاف في ذهن زينب ما جرى عليها من يوم مات فيه رسول الله إلى يوم سم أخيها الحسن ، صور مؤلمة ، ومآسي تمزق العيون تمر بسرعة في ذهن عقيلة الهاشميين .

ثم بدأت تجول أفكارها في المستقبل المظلم ، وهي في وسط

العاصفة كمسؤولة تحمل على أكتافها عبء الدعوة للرسالة الخالدة.

وعامت في تفكير عميق ، والتفت اليها الامـام الحسين ، وحاول أن يخرجها من دوامة العاصفة ، فقال :

« والله لا أعطي بيدي اعطاء الذليل ، ولا أقر لهم اقرار العبيد .. وفهمت زينب أبعاد الموقف المرتقب ، وما تحفه من مخاطر ...

قافلة الفداء

وكان الشيخ أبو معاذ في أمسيته هذه واجماً ، قد كللت سحنته سحابة حزن ، وبدء حديثه بألم فقد مرت عليه ذكريات مأساة كربلاء فروعته ، وقال :

وأطل عام . تتلوى على أيامه مأساة لتجسد الحق على مسرح الحياة ، بأروع الصور .

وقد ودع معاوية دنياه ، وفي قلبه غصة .. ماذا سيكون مصير يزيد من بعده ، وهل تتم له البيعة ؟ شيء كان يتمنى معاوية أن تنكشف له الأمور فيموت ، وهو مستريح البال .. لكن معاوية مات ، وشبح الحسين بن علي لن يبارح مخيلته ، ويزيد لم يكن الكفوء الذي يقف بوجه الحسين . لهـــذا مات وفي قلبه حسرة ، وظلال من حزن على قسماته .

وعمد يزيد – بعد موت أبيه – إلى تأمين مركزه ، وتنفيذ مخططه ، فكتب إلى واليه على المدينة – الوليد بن أبي سفيان ، بأن يأخذ البيعه له من الحسين بأي أسلوب كان . كما طلب منه أن يعتمد في مهمته هذه على مروان بن الحكم الطريد ابن الطريد .

وطار الأمويون فرحا بهذا الخبر ، لقد آن لهم أن يفرغوا حقدهم وينتقموا من البيت الهاشمي الذي روع قلوبهم ، وأجج النار في نفوسهم منذ بزوغ فجر الاسلام .

واجتمع مجلس الوليـــد بن عتبة – والي الأمويين – وقرأ الكتاب على مروان ، فأشار عليه بأن يبعث عليه الساعة ، ويطلب منه البيعة ،وقال مروان: وانا أعلم أن الحسين لا يجبك إلى هذه البيعة أبداً . ولا يرى عليه طاعة والله لو أني كنت بموضعك لم اراجع الحسين بكلمة واحدة حتى اضرب عنقه ، كائناً في ذلك ما كان .

وأطرق الوليد برأسه إلى الأرض ، ودمعت عيناه ، ثم رفع راسه وقال : ليت الوليد لم يولد ، ولم يكن شيئاً مذكوراً.

فقال له مروان : أيها الأمير لا تحزع ، مما ذكرت لك .فإن آل أبي تراب هم الأعداء من قديم الدهر ، ولا نزالون ، وهم الذين قتلوا عثمان ، وهم الذين ساروا إلى معـــاويه فحاربوه ، ولست آمن – أيها الأمير – ان لم تعاجل الحسين ان تسقط منزلتك عند يزيد ... »

فقال له الوليد : مهلا مهلا ، دعني من كلامك هذا،وأحسن القول فى ابن فاطمة فانه بقية ولد النبيين ..

وانقطع الحـــوار . وباء مروان بالفشل ، فقد كان يرجو قتل الحسين رغم ان مكانته لم تخف عليه .لكن حقده قد أعماه.

ونستشف صريحا حقد هذا الرجل على الحسين من هـــذا الحوار المتقدم .

وطلب الوليد مقابلة الامام أبي عبدالله ، وحضر مجلسه ، وكان بمعيته عداد من أهل بيته إلى مجلس الوليد ، وانتظروه على الباب ـ بناء على رغبة سيدهم الامـــام ـ ، وكان في المجلس مروان ، وبعد الترحاب قال الوليد للحسين :

يا أبا عبدالله آجرك الله في معاوية .

فرد الحسين : انا لله وإنا اليه راجعون ، وعظم الله الأجر .

الوليد : وقد دعوتك للبيعة التي اجتمع الناس عليها .

الحسين : ان مثلي لا يعطي بيعته سرا ، وانما يجب أن تكون البيعة علانية يحضرها الجماعة ، فإذا دعوت الناس غـداً للبيعة دعوتنا معهم فيكون الأمر واحداً .

الوليد : يا أبا عبدالله لقـد قلت فأحسنت القول ، وأجبت جوابا حكيماً ، وهكذا ظني بك ، فانصرف راشداً ، وتأتينا غداً مع الناس .

وهذه النتيجة لم يرتاح لها مروان بن الحكم ، وصاح بالوليد : يا أمير ان فارقك الحسين الساعة ، ولم يبايع فانك لم تقدر منه على مثلها أبداً ، حتى تكثر القتلى بينك وبينه ، فاجلسه عندك ولا تدعه يخرج أو يبايع ، والا فاضرب عنقه .

فالتفت اليه الحسين قائلا : ويلي عليك يا ابن الزرقا : أتأمر

بضرب عنقي ، كذبت والله ولؤمت ، والله لو همّ بذلك أحد لسقيت الأرض من دمه قبل ذلك ، فإن شئت فتقدم انت لضرب عنقي ان كنت صادقاً .

ثم اقبل الحسين (ع) على الوليد ، وقال له :

« انا أهل بيت النبوة ، ومعدن الرسالة ، ومختلف الملائكة ، ومهبط الرحمة ، بنا فتح الله وبنا يختم .. ويزيد رجل فاسق : شارب خمر ، وقاتل نفس ، معلن بالفسق والفجور ، فمثلي لا يبايع مثله ، .. ولكن نصبح وتصبحون وننظر وتنظرون ، أينا أحق بالخلافة والبيعة » .

وخرج الامام الحسين في المجلس - يحف به أهل بيته - إلى بداية المعركة .. وأول الصراع القاسي في عهد ابي الشهداء ..

وفي باحة البيت العلوي ، وقفت زينت بنت علي ، وهي على انتظار عودة أخيها أبي عبدالله ، ولتعرف منه ماذا وصل اليه - وهي تعلم مسبقاً انه لا يعطي بيده اعطاء الذليل ، ولا يقر لأحد اقرار العبيد ، انه يحمل روح أبيه بين جنبيه - كما قال عنه عدوه معاوية ..

وكان على الحسين أن يترك مدينة جده رسول الله ، فإن الصدام بينه وبين الأمويين واقع لا محالة ، لو بقي في المدينة ، فإن مروان يحمل في أعماقه الضغينة والموجدة على بيت علي ، فهو يطالب بثار ، وهو يلح على الوالي الأموي أن يتعجل بقتل

الحسين ، أو على الأقل استعمال العنف والحزم من هذه القضية ، وهو متيقن بأن الحسين لا يبايع ، ولا يخضع لهذا الأمر ،وهو على علم أيضاً أن الوليد – الوالي الأموي – يحاول ابعاد نفسه عن المشاركة في قتل الحسين. ولهذا يعاقبه مرة ، بعد أن كشف الامام الحسين موقفه بصراحة فيقول له : عصيتني حتى أفلت الحسين من يديك!، أم والله لا تقدر منه على مثلها أبداً .

فرد عليه الوليد : ويحك انك قد اشرت علي بقتل الحسين وفي قتله ذهاب ديني ودنياي ، والله اني لا أحب ان املك الدنيا بأسرها شرقها وغربها ، واني قتلت الحسين بن فاطمة .. والله ما أظن أحداً يلقى الله يوم القيامة بدمه إلا وهو خفيف الميزان عند الله ، لا ينظر اليه ، ولا يزكيه ، وله عذاب أليم ..

وهذا الحوار القصير بين الوالي الأموي ، ومروان يعطينا صورة واضحة للصراع العنيف الذي يدور بين الامويين أنفسهم حول موقفهم السلبي من البيت العلوي ، وما يترتب عليه من اثار نفسية وسلبية .

وفي وسط هذا الجو المتكهرب ، كان الامام يخطط لترك المدينة إلى جهة ما لاسباب كثيرة أهمها :

١ – الحكم الاموي – ونتيجة للرواسب – جادفي طلب الإمام الحسين (ع) ، وقوته الضاربة في كل الافاق ، والطاقات والامكانيات التي يتمتع بها ، تساعد على تحقيق ما يريده .

٢ ـ تجنب مدينة الرسول من الحرب الداخلية ، التي تنشب فيما لو قام الامويين بمهاجمة الإمام الحسين (ع) ، والقبض عليه ، أو قتله ، وهذا ما يضر بمصلحة الإسلام .

وهذه النظرة نفس النظرة التي نظر اليها أبوه الامام علي عند السكوت عن مطالبته بالخلافة .

٣ ـ ان معاوية تتبع بالقتل والتشريد أغلب شيعة الإمام علي وحتى ذكرت المصادر : انه قتل ثلاثين ألف من محبي علي وشيعته ، ولهذا فإن القوة المساندة له قد تشتت ، ولم يبق منهم إلا صبابة كصبابة الاناء ، وهذه لا تكفي لحرب .

٤ ـ ان قتله وهو خارج المدينة ـ وهو عالم مسبقاً بأنه مقتول ـ تكسب المعركة صفة اعلامية أوسع ، وهو ما يرمي اليه الامام الحسين من وراء نهضته ضد الباطل .

وسيتكشف لنا فيما يأتي بُعد نظر الإمام الحسين من حسن اختياره لموقع معركته ، وما كسبه من صدى مجلجل اثر في بلورة الافكار ضد الحكم الاموي .

وإذا ما صمم الإمام الحسين على ترك المدينة والحجاز ، فلا بد أن يهيء جميع المقتضيات لسفرته ، فهو لم يكن بعيداً عن أمور الحرب ، فقد خاض غمارها ببسالة وشهامة ، وعزم وقوة ، ولازم أباه في أيامه القاسية ، وشارك أخاه الإمام الحسن في ثقل الفترة التي عاشها ، وتحمل معه مرارتها ، وعليه ـ وقد حان

دوره في اتمام الرسالة ـ ان ينهض بأعبائها مهما كلفه الثمن ، ومهما بلغ الامر ـ ولم يخف الثمن والامر مسقاً على البطل المحنك.

وان أول أمر يواجه الإمام الحسين (ع) في هذه المرحلة ، هو تهيئة اداة الربط بين الموقفين في الحركة العلوية ضد التيار الاموي ، بين موقفه الحاسم الذي يقوم على الحرب والقتال ، وبين الدور الذي يليه مباشرة كي لا تبقى الثورة بدون قيادة .

ورسم المخطط لسفره ، فهو سيقود المعركة إلى أرض العراق ، وسيهز الضمير الإنساني بموقفه الفدائي الرائع ، وبالنتيجة سيهد الكيان الاموي ، ولكن كل ذلك يتوقف على الذي سيتولى قيادة المسيرة من بعده مباشرة ، ليمسح التضليل عن العيون ، ويبدد الظلام الذي خدر الاذهان .

وانتهى الامام من الاختيار .. وكان موفقاً جداً في الاختيار .. انه اختار زينب لهذه المهمة ، وكانت جلسة مغلقة بين الاخ والاخت أوقفها على كل شيء ، وأهداف مسيرته المرهقة ، ومسؤولياتها الجسيمة التي يجب أن تقوم بها في غدها المظلم ..

واعلن أبو عبدالله عزمه على المسير إلى العراق ، وعرف كثير من الهاشميين وغير اهاشميين هذا النباء .. وجابه الحسين كثيراً من أسرته وغير أسرته في محاولة لصده عن مسيرته .. ولكن التصميم ، والعزم ، والتضحية ، والفداء في سبيل قولة الحق كان الرائد لابي الشهداء .

وإذا ما ألقى الليل بكلكله على مدينة الرسول ، وآل علي عدون للسفر . دخل على الحسين أخوه محمد بن الحنفية وهو ارع الألم والمرض — وقال له :

« يا أخي أنت أحب النـاس إلي ، وأعزهم علي ، ولست ر النصيحة لاحد من الخلق إلا لك ، وأنت أحق بها .. تنح متك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت ثم ابعث لك إلى النـــاس ، فإن بايعوك حمدت الله على ذلك ، وان معوا على غيرك لم ينقص الله بذلك دينـك ، ولا عقلك ولم ب مروءتك ، ولا فضلك ، وإني أخـاف عليك أن تدخل راً من هذه الأمصار فيختلف الناس بينهم ، فطائفة معـك ، خرى عليك ، فيقتتلون فتكون لأول الأسنة غرضا ، فـإذا ر هذه الامة كلها نفساً وأباً وأماً اضيعها دماً وأذلها أهلاً » .

« فرد الحسين عليه : فأين أذهب ؟

قال : تنزل مكة ، فـــإن اطمأنت بك الدار ، والا لحقت مال ، وشعب الجبال وخرجت من بلد إلى آخر حتى تنظر ما ير اليه أمر الناس فانك أصوب ما تكون رأيا ، واحزمـــه لا حتى تستقبل الامور استقبـــالاً . ولا تكون الأمور أبداً كل عليك منها حتى تستدبرها استدباراً » .

الحسين : « يا أخي لو لم يكن في الدنيا ملجأ ، ولا مأوى بايع ت يزيد بن معاوية ياأخي ، جزاك الله خيراً لقد نصحت ،

وأشرت بالصواب ، وأنا عازم على الخروج إلى مكة ، وقد تهيأت لذلك انا واخوتي ، وبنو أخي ، وشيعتي أمرهم أمري ، ورأيهم رأيي .. واما أنت فلا عليك أن تقيم بالمدينة فتكون لي عيناً عليهم ، لا تخفي عني شيئاً من أمورهم » .

وكان آخر من كلم الامام الحسين عبدالله بن عباس - وهما في مكة - وقد وصلها إبو عبدالله في طريقه إلى العراق ، فدار بينهما الحوار التالي :

ابن عباس : جعلت فداك ، انه قد شاع الخبر في الناس ، وارجفوا بأنك سائر إلى العراق ، فبين لي ما أنت عليه ؟

الإمام الحسين : نعم قد أزمعت على ذلك في أيامي هذه ان شاء الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ابن عباس : أعيذك بالله من ذلك ، فإنك ان سرت إلى قوم قتلوا أميرهم ، وضبطوا بلادهم ، واتقوا عدوهم ، ففي مسيرك إليهم لعمري الرشاد والسداد ، وان سرت إلى قوم دعوك اليهم ، وأميرهم قاهر لهم ، وعمالهم يجبون بلادهم ، فانما دعواك إلى الحرب والقتال ، وأنت تعلم انه بلد قد قتل فيه أبوك ، واغتيل فيه أخوك ، وعبيد الله - بن زياد - في البلد يفرض ويعطي ، والناس اليوم عبيد الدينار والدرهم فلا آمن عليك أن تقتل ، فاتق الله ، والزم هذا الحرم وان كنت على حال لا بدان تشخص ، فصر إلى اليمن فإن بها حصوناً لك ، وشيعة لأبيك ، فتكون

منقطعاً عن الناس .

ويرد عليه الحسين: والتصميم يضفي على كلماته بطولة: يا ابن العم .. اني لأعلم انك ناصح مشفق ، ولكن قد عزمت المسير ، ولا بد من العراق ..

– ابن عباس – والاسى يقطع قلبـــه – : إذا كنت لا بد سائراً فلا تخرج أهلك ونساءك ، فيقال ان دم عثمان عندك وعند أبيك . فوالله ما امن أن تقتل ونساؤك ينظرن اليك .

الحسين : «والله يا ابن العم لان اقتل بالعراق احب إلي من أن أقتل بمكة وما قضى الله فهو كائن .. »

وانقطع الحديث بين المتحاورين، وطاف عليهما هدوء غريب، وغام ابن عباس في تفكير عميق يجول في آفاق المستقبل المظلم ، وأخيراً ينساب إلى سمعه صوت الحسين، ونبراته الجادة الحاسمة ، ممزوجاً باللوعة والمرارة والمأساة .

« يا ابن العم ، اني رأيت جدي رسول الله في منامي ، وقد أمرني بأمر لا أقدر على خلافه وانه امرني بأخذ النسوة معي»

ويندهش ابن عباس ويتلعثم في الحديث ، وماذا يقول بعد هذا الانذار .

ولم تمر فترة قصيرة حتى تعالى عتاب رقيق من وراء الحجاب، ذكر ابن عباس بصوت فاطمة الزهراء :

« يا ابن عباس ، تشير على سيدنا بأن يخلفنا ها هنا ، ويمضي

وحده لا والله بل نحيا معه ، أو نموت معه .. وهل أبقى الزمان لنا غيره .. لا نفارقه أبداً حتى يقضي الله ما هو كائن » .

ويعرف ابن عباس ان المتكلمة هي عقيلة بني هاشم .. زينب بنت علي وبضعة فاطمة ، وحفيدة رسول الله ، وأم الأشبال ، وقائدة مسيرة الحركة العلوية بعد الحسين ..

وفي سواد ليل قاتم لم تطرزه أضواء القمر ودعت قافلة النساء البيت العتيق إلى وادي الموت من أجل الكرامة والشرف.

في لحظة الوداع

ودمعت عينا الشيخ أبو معاذ ، وهو يحدث سماره يقول :

وازمع الامام الحسين على السفر إلى العراق ، وباءت محاولات الأخوة والأقرباء ، والوجوه من بني هاشم بالفشل في صده عن السفر ، وكانت آخر محاوله قام بهـا عبد الله بن جعفر ـ زوج زينب ـ فقد أرسل له كتاباً مع ولديه محمد وعون ، قال فيه :

« أما بعد ، فاني انشدك الله انلا تخرج من مكة ، فاني خائف عليك من هذا الأمر الذي قد ازمعت عليه أن يكون فيه هلاكك ، واستئصال أهل بيتك فانك ان قتلت ، خفت أن يطفأ نور الله ، فانت علم المهتدين ، ورجاء المؤمنين فلا تعجل بالمسير إلى العراق ، فاني آخذ لك الأمان من يزيد ، ومن جميع بني أمية لنفسك ، ولمالك ، وأولادك ، وأهلك ، والسلام » .

ولم يكن هذا فقط فقد تمكن من التأثير على الوالي الأموي أن يكتب إلى الامام يطمأنه على بقائه في المدينة دون أن يصاب بسوء ، وجاء في رسالته :

« فقد بلغني انك قد عزمت على الخروج إلي العراق ، وأنا أعيذك بالله تعالي من الشقاق ، وخائف عليك ، ولقـــد بعثت

اليك بأخي يحيى بن سعيد فأقبل إلي معه ، فلك عندنا الامان ، والصلة ، والبر ، والاحسان وحسن الجوار ، والله بذلك عـلي شهيد ووكيل ، وراع وكفيل ، والسلام » .

واندفاع ابن جعفر لسلوك هذا الطريق ، وتأثيره على الوالي الأموي بأخذ هذا الأمان لا يفسر إلا من أجل سلامة ابن عمه الإمام الحسين الذي يعتقد به انه «نور الله ، وعلم المهتدين ،ورجاء المؤمنين » .

ويرد الامام الحسين على كتاب ابن عمه :

« أما بعد ، فان كتابك ورد علي فقرأته ، وفهمت ما فيه ، اعلم اني رأيت جدي رسول الله في منامي فأخبرني بأمر ماض له ، كان لي الأمر أو عليفوالله يا ابن العم لو كنت في حجر هامة من هوام الأرض لاستخرجوني حتى يقتلوني ووالله ليعتدن علي، كما اعتدت اليهود في يوم السبت والسلام » .

وخابت آمال ابن جعفر ، فقد لمس تصميم الحسين علىالخروج إلى العراق مهما كلف الأمر ، فقد أمره جده الرسول، بأمر لا بد له من الامتثال .

وغاب عبد الله – زوج العقـــيلة – في دنيا افكاره . أنه يستعرض الأحداث التي جرت على بيت عمه الامام علي من يوم ودع الرسول الأعظم دنياه حتى هذه اللحظات ، ولم يقطـع سلسلة أفكاره عليه الا قدوم زينب ، وهي في لحظة الوداع .

ويلتفت الزوج إلى زوجته ، وتكاد الأحزان والأفكار تمنعه من الحديث ، وتبقى عيناه مسمرة في وجهها ، الذي حمل على جنباته من الهموم والأحداث ما خطف منه النضارة .

وابن جعفر على بينة من أمر الحسين ، ووضوح نهجه ، ولا يشك في إمامته ان قام أو قعد ، وهو يعلم أن دعوة الحسين لاخته زينب بالسفر معه لا تخلو من حرس ومصلحة للحركة العلوية ، والدعوه الحقه ، ولا يمكن مخالفته باعتباره أماماً له .

ومرت فترة قصيرة على الزوجين يشدهما الوجوم ، وتفر الكلمات ، فيخونهما التعبير ، وأخيراً تنساب الحروف مرتعشة على شفتي ابنت علي ، وتقول له :

يا ابن العم ، هل تأذن لي بالسفر مع أخي ؟ ..

ويغص ابن جعفر بالجواب ، وتعلو وجهه صفرة ، كأنها صفرة الموت من شدة التأثير ، ولولا الرجولة لسبقت دموعه كلماته ، وتعثر الجواب على لسانه ، لكنه كان كرش السحاب على قلب زينب :

« يا ابنت العم ، كنت أود أن أكون برفقة ابن عمي وسيدي الحسين لولا المرض الذي حال دون تحقيق هذا الشرف » .

ويسكت الرنين ، وتنتشر الغيوم مرة أخرى ، تغطي الموقف .. ماذا تريد زينب من زوجها المكفوف ، أو المريض – على اختلاف الرواية – أكثر من هذا ، فهل كانت تريده معها في

قافلة الفداء ، أم هناك أمر ستكشف عنه اللحظات المحرجة ، قد يكون ذاك ..

ولم يخف ما يجول بخاطر زينب على ابن جعفر ، فهو يستشف من خلال ومضات قلبها المرهق بالآلام مراد زوجته ، وهو لم يكن ببخيل عليها بما تريد انما هي لحظه وداع ، ولعله فراق الأكباد ، ومع كل ما يحمل الانسان من بطولة وايمان ، فان العاطفة لا بد لها أن تأخذ مجراها ، والرجل الرجل من يكبح جماحها في الساعة الحرجة ..

وقطع ابن جعفر حبل الصمت ، ويقول بعزم لزينب :

« وهل تقبلي أن يكون ولدينا محمداً وعونا في ركاب خالهما في سفره هذا » .

وتتفتح أسارير الأم ، وتستبشر لهذا السؤال ، أنه الأمر الذي يدور في نفس العقيلة .. انها ستشارك بها الأمهات المثكولات حين تخمد أضواء القرابين في وادي الموت .

وبر الولدان ، بما أراد لهما أبوهما ، فقد برزا بين يدي الحسين يوم العاشر من المحرم بقلبين ثابتين على الايمان ، ونالا الشهادة في ذلك الميدان المشرف ..

ويبلغ النبأ ابن جعفر ، ويجلس للعزاء ، ويدخل الناس يعزونه ، فينفعل أحد غلمانه بالموقف ، ويقول وهو في غمرة الأسى ـ ماذا لقينا من الحسين ؟

ويغضب الأب المثكول بالحسين قبل ولديه ، فيحذفه بنعله ويصرخ في وجهه :

« يا ابن اللخناء .. أللحسين تقول هذا ؟ والله لو شهدته لما فارقته حتى اقتل معه ،وقد هون علي مصابهما انهما قتلا مع أخي ، وابن عمي وسيدي مواسيين له صابرين معه .

ثم قال :

« الحمد لله ، لقد عز علي مصرع الحسين ، وإذا لم أكن قد واسيته بيدي ، فقد واسيته بولدي » .

هكذا كان موقف ابن جعفر .

وأجالت زينب عينيها في بيتها ، ومن تخلف من ولدها وزوجها وأهل بيتها تودعهم بقلب ملؤه الحسرة والحزن ، ولا تدرى هل سيكون لها معهم لقاء بعد هذا ؟ .

وانتقلت إلى ركب الحسين في طريقها إلى كربلاء ...

إلى مذبح القرابين

« نحن نسير والمنايا تسير معنا » ..

قالها الامام الحسين ، وهو في طريقه إلى كربلا .. وتسمع زينب ويسمع معها كل من تضمه قافلة الموت ، ما يقوله الامام الحسين (ع) بين الفترة والأخرى وكأنه يحاول أن يضع أهل بيته وأصحابه أمام الأمر الواقع الذي تنتظره القافلة في ساحة كربلاء .

ويسكت الشيخ أبو معاذ فجأة ، وجالت في عينيه دموع ، انها ذكرى المآساة الدامية التي ظهرت بها معركة البطولة في كربلاء ..

وتدرج الشيخ في الحديث بعد انقطاع قصير :

وكان أبو عبد الله وهو يلقى آخر نظرة على مدينة جده الرسول ، وهو في طريقه إلى مكة ، ومنها إلى العراق ، وقد تلوت آمال الأمويين زاحفة نحو ثأرها القديم . فالجروح بعد لن يخمد سعيرها ، ولن تجف دماؤها ، وهذا هو ابن علي بين براثن العدد ، تضيق عليه ليمد يد البيعة ليزيد ، وهيهات ذلك .. فالأمويون ، كل الأمويين يعلمون علماً يقيناً ان الحسين بن علي

لن يمد يده ، ويخضع لهذه الطغمة ، ولا يقبل بهذه الدنية ، فقد قالها صريحة مروان بن الحكم للوالي الأموي في المدينة ، يا سعيد لا تترك الحسين يخرج من مجلسك دون البيعة ، فانك لن تظفر به بعد هذا ..

ويترك الحسين مدينة جده ثم بيت الله،وقد ضاقت الأرض بعينه ، ولم يكن أمامه إلى المسير نحو النهاية المرعبة .. وبقلب خاشع متضرع إلى الله ، ودع البيت العتيق ، قبل أن يولد فجر وتشرق شمس .

وهو يجمع ركبه ليبدء بالمسيرة يقول فيما قال :

« خط الموت عـلى ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة ، وما أولهني بأسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف .

وخير لي مصرع أنا لاقيه،وكأني بأوصالي هذه تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء .. »

وهذا بيان من الزعيم الثائر إلى أصحابه يكشف لهم طبيعة ما سيلاقيه في هذه الرحلة نحو وادي الفداء . وإذا كان جـلد الرجال يحتمل سماع هذه الأنباء ، فان عاطفة النساء لا تقف أمام هذه المفاجئات .

ولكن زينب وهي صاحبة الرسالة تتقبل هذا القول من أخيها وان كان قلبها قد تفصد أسى ، وتمزق حزنا ، غير انها لا بد أن تطوى أضلاعها على الصبر ، وهي قد كلفت بذلك ، وحملت

رسالة النهضة ، والمستقبل المؤلم أمامها ، وهي لا زالت في بداية الرحلة . واذا انهارت أمام هذه الهزات فمن للرسالة يا ترى في الغد المضرج بالدماء ؟ ..

وودعت القافلة أرض المعجزات ،وهي تطوى الفيافي والقفار لتحط عن قريب رحلها في مدينة الماساة ، حيث مذابح القرابين .. وكلما ألح صبح ، وأجهز ليل فقد كان الركب الحسيني يقترب من الملحمة الدامية ،وترتسم أبعاد المستقبل في عيون ما فتحت على باطل منذ أن طرفت في هذه الدنيا .وما اكتحلت بغير الحق في لحظة ما .

وزينب في القافلة لم تكن كسائر النساء، انما هي المسؤولة ؛ وذات الشأن ،اختارها أخوها - قائد الثورة - للدور الأساسي من نهضته . ذلك الدور الذي يجسد الامتداد النضالي من بعده من أجل كلمة الحق .

وليس بالمستغرب ان اختيرت زينب لاشق فترة تجتازه الثورة العلوية من حيث كثافة معطياتها الايجابية ،فهي ابنة علي وأمها الزهراء والتي تحملت مسؤولية كشف الدور التآمري على حق علي بن أبي طالب في أحلك أيامه ..

وزينب غصن من تلك السلسلة التي تحملت رسالة الاسلا ودعوتها ،ولم تكن نهضة الامام الحسين الا امتداداً للرسالة الخالدة التي جاء بها النبي الكريم . وزينب في موقفها البطولي بعد مأسا

كربلاء امتداداً لهذه الدعوة ، وكشف الباطل سواء كان في الكوفة أو الشام .

وتصبح العقيلة على أخيها الحسين في فجر قاتم الأضواء ، والركب بعد لم يبتعد كثيراً عن أرض الحجاز ، فتلمحه وهو في محرابه يؤدي ورده ، وتجلس إلى جنبه ، وتشد عينها فيه ، وكأنها تريد أن تزود من رؤيته ، حتى إذا أتم ورده ، قالت له — واللوعة تشدد في صدرها الكبير ،وحشرجة الحزن تخالط صوتها — :

يا أخي ، سمعت البارحة ، كأن هاتفاً يقول :

الا يا عين فاحتفظي بجهد ومن يبكي على الشهداء بعدي
على قوم تسوقهم المنايا بقدار إلى انجاز وعدى

وبقلب متلهف للجواب تسكت زينب ما يرد عليها أخوها الحسين ، وبايمان منقطع النظير ، ونفس هادئة مطمئنة يقول أبو عبد الله — وهو يقيم لها المستقبل ببضع كلمات — :

« يا أختاه كل الذي قضى كائن ، ولا مرد له »..

ويخيم السكون عليهما ، ويدعوهما إلى تفكير عميق في مستقبل مظلم ..

ولم يصعد ضحى ذلك اليوم حتى وصل اعرابيان ، وأكدا مقتل رسول الحسين وسفيره لأهل الكوفة مسلم بن عقيل ، وان لسان كوفيين معه ، وسيوفهم عليه ..

ولم يكن ما بلغه عن مقتل مسلم بن عقيل بمعطله عن متابعة مسيرته ، فقد قالها صريحة :

«وايم الله، لو كنت في حجر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني ، حتى يقضوا بي حاجتهم ، والله ليعتدن عليّ كما اعتدت اليهود في السبت » .

وجمع أصحابه ، وأهل بيته ، وأكد لهم الحقيقة المرة، ليكونوا على بينة من أمرهم ، وكان من جملة ما قال لهم :

« وخذلنا شيعتنا.. فمن أحب منكم أن ينصرف ، فلينصرف ليس عليه من ذمام .

وأنتم يا آل عقيل حسبكم من القتل ما أصاب مسلم ، فانجوا بأنفسكم » .

لكن النفوس المؤمنة الواثقة بعقيدتها لا يرهبها الموت كيفما كان وما كان جواب أخوه مسلم بن عقيل ، والكثير من الأصحاب الا التصميم والجزم على متابعة المسيرة ، وعـــدم مفارقة قائد الثورة ، مهما كان المصير الذي ينتظرهم .

وتوالت الأخبار على الحسين ، وكلها تحمل أخبار المستقبل المظلم ، فقد قتل « عبد الله بن بقطر » ، وكان الامام الحسين قد سيره إلى ابن عمه مسلم قبل أن يعلم بمقتله ، ثم مقتل « قيس بن مسهر الصيداوي » رسول الحسين إلى الكوفة .. وكلما وافاه خبر عن مقتل أحدهم ، كان يردد بحرقه «لا خير في العيش بعد

هؤلاء » . كما كانت هذه الأخبار تشحذهم الرجال الذين صحبوا الحسين ، ويزيد من تصميمهم على مقارعة الباطل .

وتواصل القافلة سيرها ، والوجوم قد خيم عليها ، حتى النساء بدء يظهر على وجوهها الذعر والقلق ، وتصبرهم زينب ، وتذكرهم ، انها البداية ، والمشوار طويل ، ولا بد من التحلي بالصبر .

ويلتقي الركب الحسيني بكتيبة أموية وعليها الحر بن يزيد الرياحي ، ومهمتها أن تستطلع أخبار الحسين ، وتوصلها إلى ابن زياد ، ويدور حديث بين الامام الحسين والحر ، وينصحه الأخير بعدم الاطمئنان بأقوال أهل الكوفة ، وعدم التوجه اليها ، ومن جملة ما قال :

« يا أبا عبد الله ، اني اذكرك الله في نفسك ، فاني أشهد لئن قاتلت لتقتلن » .

ورغم وضوح الانذار هذا وصراحته ، رتقيمه للنتيجة الحاسمة ، فقد كانت صلابة الامام الحسين ، وعزمه على المقابلة أكبر من كل تحذير ، قال :

« أفبالموت تخوفني ، وهل يمدد بكم الخطب أن تقتلوني » ..

ويصمت الامام قليلا ، ثم يتمثل بقول الشاعر .

سأمضي وما بالموت عار على الفتى
إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلماً

وواسى الرجال الصالحين بنفسه
وفارق مثبورا ، وخالف محرما
فان عشت لم أندم ، وان مت لم ألم
كفى بك ذلا ان تعيش وترغما

وعقيلة الهاشميين تنصت باهتمام لهذه المحاورة بين الحسين والحر ، واعية جيداً مضامينها ، فلقد بدت لها نذر المنايا تطرق آفاق دنياها ، وتوضح لها المنظر الرهيب الذي ينتظر الصفوة بأفجع الصور الدامية .

وتكتم في صدرها أكثر من آهة ، رغم انها تتعمد الصبر ، وتتحلى بالسكينة لكي لا يظهر ملامح هذا التأثر والحزن على وجهها المرهق من هول المستقبل المظلم ، وجهد الطريق ، وصمدت بشجاعة فائقة ، وبقلب ملؤه الايمان .. وكيف لا تكون كذلك وهي ابنة علي ، الرجل الذي ما دخل الجبن قلبه لحظة ما .

وانتهت القافلة إلى كربلاء مذبح القرابين ، وبدو الموت الرهيب ، كأنه يعتصر عيون هذه الصفوة المؤمنة ، ويتساءل الامام الحسين عن الأرض الذي هم فيها ، فيقال له : « كربلاء » ويلتفت عليه السلام لأصحابه ، وأهل بيته ، وهم يحفون به :

« ههنا محط ركابنا ، وسفك دمائنا .. هنا محل قبورنا .. بهذا حدثني جدي رسول الله » .

وبهذا الحديث وضح الامام لجميع من صاحبه في مسيرته هذه ،

بأن كربلا هي نهاية المطاف ، وفيها النتيجة المحتومة ليكونوا على بينة من أمرهم ، فهو لم يرغب أن يجر على أحد الموت ، وفي هذه الساحة الموت الذي لا بد منه ، لهذا يؤكد لهم : ان هـذا الليل قد غشيهم فليأخذوه جملا ، ويتركوه مـع القوم وجها لوجه ..

ولم تكن مسيرة هذه الصفوة من أهل بيته وأصحابه مـع الإمام الحسين اندفاعاً عاطفياً ، انما هو أبعد من هذا كـله .. هي قضية العقيدة ، ومدى الأيمـان الذي يحمله كل منهم ، فهو المقياس الأساسي ، لأبعاد التضحية والفداء في حساب كل واحد منهم ... والنتيجة مهما تكن مرة ، وعسرة ، ، فهي في نظر الإنسان المسلم المؤمن بقضيته طبيعية للغاية .

ولهذا نلمس رود الفعل الرائعة تشرق شموخاً في جوارح هذه الصفوة تصميماً وعزماً ، وثباتاً . يقول أحد الأصحاب ، وهو يمثل كل الصامدين في قافلة الموت .

« يا أبا عبد الله ، أنتخلى عنك ، وبمم نعتذر إلى الله في اداء حقك .. أما والله لو علمت أني أقتل ، ثم أحيي ، ثم أحرق ، ثم أحيى ، ثم أذرى يفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارقتك حتى القى حمامي دونك ، وكيف لا أفعل ذلك وهي قتلة واحدة ، ثم الكرامة التي لا انقضاء لها ، ويعلم الله انا قد حفظنا بموقفنا هذا معك غيبة رسول الله فيك » .

ورغم قصر هذه الفقرة التي قالها أحد الفدائيين لعقيدته ، يتضح لنا منها مدى الايمان وعمق العقيدة في نفس كل واحد من هؤلاء الصفوة ، فهي في حسابهم كل شيء في سبيل الدعوة الإسلامية .

وإذا كان هذا جواب أحد الأصحاب ، فكيف يكون رد الأهل ، والأخوة ، والأولاد ولقد حسم الموقف أحدهم حينما قال له :

« يا أبا عبد الله ، نفديك بأنفسنا ، وأموالنا ، وأهلينا ، ونقاتل معك حتى نرد موردك ، قبح الله العيش بعدك ، وعند رسول الله نخاصم هذه الطغمة الفاسدة) .

وينساب رد الامام الحسين عليهم السلام اليهم ، كأنه النور الذي ينعش العيون الضامئة .

« والله اني لا أعلم أصحاباً أوفى ، ولا خيراً من أصحابي ، ولا أهل بيت أبر ، ولا أوصل من أهل بيتي . فجزاكم الله عني خيراً » .

وتفرق القوم في حط رحالهم بأرض المعركة .

وعلى مقربة من هذا التجمع ، كانت تقف زينب تسمع الحديث ، وتتحسس وقع الخطب التي توالى المتكلمون .. واحداً تلو الآخر ، سواء كانوا من أهل بيتها أو المؤمنين من أصحاب أخيها ، تلك الأقوال التي تجسدت فيها البطولة ،

وتمثلت بها عمـــق الايمان .. وتفجرت فيها العاطفة ، فاختنقت بعبرتها ، والقت بنفسها على أخيها الحسين ، والنشيج يمزق الكلمات :

« وأثكلاه ، ليت الموت أعدمني الحياة اليوم ماتت أمي فاطمة ، وأبي علي ، وأخي الحسن .. يا خليـــفة الماضين ، وثمالة الباقين » ... وتغفو الكلمات على شفتي البطلة .

ويضمها الحسين (ع) اليه برفق ، وبهدوء القائد الصلب ، المصمم على تنفيذ مخططه بكل صبر ، يهمس في اذن اختـــه الفزعة ، قائلاً :

« زينب لا يذهبن بحملك الشيطان . اختاه أتقي الله وتعزي بعزائه ، وأعلمي أن أهل الأرض يموتون ، وأهل السماء لا يبقون ، وان كل شيء ها لك الا وجه الله ، الذي خلق الخلق بقدرته ، ويبعث الخلق ويعيدهم ، وهو فرد وحده .. جدي خير مني ، وأبي خير مني ، وأمي خير مني ، وأخي خير مني ولي ولكل مسلم برسول الله أسوة » .

وتهدء اللوعة ، وتستقر الدمعة ، وتسترجع زينب أنفاسها الشاردة ، ويأخذها الحسين إلى فسطاطها ، لتقضي فيه ما بقي من ليلتها الليلاء ..

وهل تغفوا العين الجازعة من هول المستقبل ، وصورة الغد المرهق تطبق آفاقها ، وأبعادها تسيطر على كل أفكارها .

الظهيرة الدامية

وقال الشيخ أبو معاذ : وهو يتأمل في النجوم : وهي تطرز الافق ، وكأنه يستلهمها الحديث :

كانت الليلة التي سبقت مقتل الحسين عابسة ، منهوكة الاضواء فقد مرت على آل البيت ثقيلة عسيرة ، وقد قطعها الحسين وأصحابه بالصلاة والدعاء ، والاعداد لصبيحة غد ، رغم ان مضايقات الجيش الاموي كانت تتصاعد لكن صلابة الايمان ، وعزم الرجولة ، وبطولة الإنسان كانت تتجلى على وجوه هذه الصفوة المختارة التي تحف بالحسين بن علي مع انها لم تتجاوز السبعين نفراً الا بقليل ، ويقابلها جيش جرار قدر بالاف ، وحق تلك الليلة كانت الكتائب تترى من الكوفة إلى كربلاء لمحاربة الحسين .

ان عبيد الله بن زياد حمل الناس على الخروج لحرب الحسين سواء بالترهيب أو الترغيب ، حتى باتت أسواق الحدادين في الكوفة لم تغلق محلاتها ليلاً ونهاراً لتهيئة السيوف والنبال للمحاربين ، الكبار والشباب سواسية في عرف الوالي الأموي لا بد أن يخرج إلى كربلاء كل من يقدر على حمل السلاح .

ومعسكر الحسين صغير فيما يضم ، لكنه كبير جداً في معنوياته ، أول دليل على ذلك تدافع آلاف من الجيش الأموي ، والضالعين في ركابه إلى مقابلة ابن رسول الله ، ولو كان ابن زياد ، لم يعرف الحسين وبطولته ، وأصحابه وصمودهم لما دفع بهذا الزخم من البشر لمحاربته ، كتيبة تلو الكتيبة .

انه على علم ويقين ان ابن علي يرفض الاذعان لحكم الامويين ، وهو وان كتب إلى قائد الجيش عمر بن سعد أن يحسن رعاية الحسين ان اذعن لحكم يزيد ، لكنه متيقن ان ذلك لم يكن ، لهذا افرغ حقده ، وأملى على قائد جيشه ماذا يجب أن يعمل بجثيد الرسول إذ ما مد يده للمبايعة ..

يقول الكتاب :

من ابن زياد أمير الكوفة والبصرة إلى عمر بن سعد .

أما بعد : فاني لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه ، ولالتكون له عندي شفيعاً أدع الحسين إلى ما أمرتك ، فان نزل وأصحابه على الحكم مستسلمين فابعث بهم إلي ، وإن أبوا ، فازحف عليهم حتى تقتلهم ، وتمثل بهم ، وبعد أن يُقتل الحسين أوطيء الخيل صدره وظهره .

فان مضيت لامرنا ، جزيناك جـــزاء السامع المطيع ، وان أبيت فاعتزل جندنا ، وخل بين شمر بن ذي الجوشن والعسكر والسلام » .

وواضح من فقرات هذه الرسالة ان عبيد الله بن زيادمطمئن إلى ان الحسين لم يقدم على بيعة يزيد مهما كلفه الأمر ، رغم انه في ضائقة .

وكان الأمر كما تنبأه سفاك الأمويين ابن زياد ، فأبو عبدالله الحسين صلب في ايمانه يحمل روح أبيه بين جنبيه ، وهو خارج من أجل قضية شريفة ، وهو الآن في موضع جني الثمار ، وان الامر سيكلفه ثمناً غالياً رأسه ، ورؤوس هذه الصفوة من أهل بيته وأصحابه ، لكن هذا في سبيل العقيدة والدين يهون .

وتدلف في تلك الليلة الواجمة زينب إلى خيمة الحسين وهو فيها يعالج سيفه ، ويصلحه ،ويرفع الحسين إليها عينيه ، فيراها، وقد توشحت بجلباب امها فاطمة الزهراء ،فأشار اليهـا بالجلوس اليه .. وكانت عقيلة الهاشميين رابطة الجأش ،قد ملكت أمرها، وأخفت احزانها ، وجلست إلى أخيها ، وهي تتطلع اليـــه ، وكأن تريد أن يبادرها بالحديث ، ولم يخف الحسين عليه ذلك ، ويحدثها ملياً عما سيكون عن أمرهم مع هذا الجيش الضارب في آفاق هذه الساحة ، وما هي إلا جولة بعد صلاة الظهر حـــق تخمد أنفاسهم ، ولم يبق معهـــا إلا فتاه المريض زين العابدين ، وتنتقل إليها المسؤولية ، أو في الحقيقة المرحلة الثانية من هـذه النهضة وعليها أن تقوم بدورها ، وان تؤدي واجبها في كل ما تراه صالحاً لتعرية حقيقة الامويين ، وطغمته الفاسدة .. ثم يختم

حديثه معها بأن توسد البكاء في صدرها والعاطفه بين أضلاعها، وان لا يشغلها منظر المجزرة الرهيبة عن مهمتها الاساسية والتي من أجلها صحبها في مسيرته هـــذه .. وتعاهدا على كل ذلك ، ويطوي الليل سدوله ، ليزحف فجر تائه الضمير ، مروع العينين، شارد الافكار ، قاتم الوجه .

وبزغت شمس العاشر من محرم كئيبة تكاد تخطف روعتهـا اجواء المأساة وغصت آفاق كربلاء بآهات حزينة ، وانتشرت في ساحتهـا أشباح الموت ، وكأن القـدر يقف للصفوة المختارة ليحصد منهم جماجم ، ويجللهم بالمـــوت ، ويغرقهم بالمآسي ورغم ان الامام الحسين كان في حركة متواصلة طيلة صباح ذلك اليوم ، لكنه ما انقطع عن أخته زينب ، فهو على اتصال معها .

وساعات الضحى تطوى دقائقها بشراسة ،وخطوط الظهيرة الدامية تزحف بقسوة رهيبة ،وآل رسول الله يستعدون للموت، والجيش الأموي يضيق نطاقه على مضارب الامام الحسين،ويشدد منعه من وصول الماء اليهم في محاولة جادة لاجهادهم ، وزيـادة في ايلامهم .

وقد تناسى القوم انهم يتكالبون على ريحانـــة الرسول ، وابن الزهراء وفتى عـلي ، وسيد شباب أهل الجنة .. لقد مسخ القوم إلى حقـــد ثائر ، وجاهلية رعناء ، وثارات قديمة ، وضغينة قاتلة .

وحاول أبو عبدالله أن ينصح القوم، وفي القوم، وفي جيش الكوفة ان لم يكن كله ـ من يعرف من يكن المحارب، وقد سبق لهم ان كتبوا له. يا أبا عبدالله لقد أخضر الجناب، وأينعت الثمار، فاقدم على جند لك مجنده. هكذا كتبوا له بالأمس، وتنكروا عليه اليوم ووقفوا منه موقف المحارب. ومع هذا فقد حاول الامام الحسين (ع) أن يلقي عليهم الحجة ليكون معذوراً أمام الله عند محاربتهم، فقال وهو أمام الجموع المتراصة الزاحفة لمقاتلته:

أيها الناس، ان الله تعالى خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال، متصرفة بأهلها حالاً بعد حال، فالمغرور من غرته، والشقي من فتنته فلا تغرنكم هذه الدنيا فانها تقطع رجاء من ركن اليها، وتخيب طمع من طمع فيها، وأراكم قد اجتمعتم على أمر قد اسخطتم الله فيه عليكم، واعرض بوجهه الكريم عنكم واحل بكم نقمته فنعم الرب ربنا، وبئس العبيد أنتم. أقررتم بالطاعة، وآمنتم بالرسول محمد (ص)، ثم انكم زحفتم إلى ذريته وعترته تريدون قتلهم، لقد استحوذ عليكم الشيطان، فأنساكم ذكر الله العظيم، فتباً لكم ولما تريدون إنا لله وإنا اليه راجعون، هؤلاء قوم كفروا بعد ايمانهم فبعداً للقوم الظالمين.

ايها الناس انسبوني من أنا ثم ارجعوا إلى انفسكم وعاتبوها، وانظروا هل يحل لكم قتلي، وانتهاك حرمتي، ألست ابن بنت

نبيكم ، وابن وصيه ، وابن عمـــه وأول المؤمنين بالله ، والمصدق لرسوله بما جاء من عند ربه ؟ ، أو ليس حمزة سيد الشهداء عم أبي ؟ أو ليس جعفر الطيار عمي ، أو لم يبلغكم قول رسول الله لي ولأخي : هذان سيدا شباب أهل الجنة ؟ فان صدقتموني بما اقول، وهو الحق والله ما تعمدت الكذب منـــذ علمت ان الله يمقت عليه أهله ، ويضرب من اختلقه، وان كذبتموني فان فيكم من ان سألتموه عن ذلك أخبركم . سلوا جـــابر بن عبدالله الانصاري ، وأبا سعيد الخدري ، وسهل بن سعـــد الساعدي ، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله لي ولأخي . أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي ؟ ! .

فان كنتم في شك من هذا القول أفتشكون أني ابن بنت نبيكم فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم ، ولا في غيركم ، ويحكم أتطلبوني بقتيل منكم قتلته ، أو مـــال لكم استهلكته ، أو بقصاص جراحة ..

يا شبث بن ربعي ، ويا حجار بن أبجـــر ، ويا قيس بن الأشعث ، ويا زيد بن الحارث ألم تكتبوا لي أن أقدم قـــد اينعت الثمار ، واخضر الجناب ، وانما تقدم على جندلك مجندة؟

أيها الناس إذا كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض - فقاطعه قيس بن الأشعث - وهو من قادة الجيش

الكوفي – أولا تنزل على حكم بني عمك ؟ فانهم لن يروك إلا ما تحب ، ولن يصل اليك من مكروه ..

فقال له الحسين : أنت أخو أخيك ؟ أتريد ان يطلبك بنو هاشم أكثر من دم مسلم بن عقيل ؟ ..

لا والله لا أعطيهم بيدي اعطاء الذليل، ولا أفر فرار العبيد.. عباد الله اني عذت بربي وربكم ان ترجمون، أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » .

وعمر بن سعد قائد الجيش الأموي، لاحظ أن الحسين بخطبته سوف يؤثر على الجيش – لهذا أمر بالزحف على الحسين واصحابه ولكن أبا عبدالله لم يرهبه الزحف ، انما عليه أن يبلغ ويعظ ويرشد قبل أن يدخل الحرب ، وتراق الدماء ، ومع أن الجيش الكوفي بدأ بالمناوشات ، فقد ركب الحسين (ع) فرسه مرة ثانية وأخذ مصحفاً ، ونشره على رأسه ، ووقف بازاء القوم ، وقال :

« يا قوم ان بيني وبينكم كتاب الله ، وسنة جدي رسول الله (ص) » ثم استشهدهم عن نفسه ، وما عليه من سيف النبي ، ولامته ، وعمامته ، فأجابوه بالتصديق فسألهم عما أقدمهم على قتله . قالوا : طاعة للأمير عبيد الله بن زياد، فقال عليه السلام:

« تباً لكم أيتها الجماعة ، وترحاً ، احين استصرختمونا والهين ، فاصر خناكم موجفين سللتم علينا سيفاً لنا في ايمانكم،

وحثثتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم فأصبحتم البأ لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح فيهم ، فهلا لكم الويلات ! تركتمونا والسيف مشيم ، والجأش طامن ، والرأي لما يستحصف ، ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبا ، وتداعيتم عليها كتهافت الفراش ، ثم نقضتموها . فسحقاً لكم يا عبيد الامة ، وشذاذ الاحزاب ، ونبذة الكتاب ، ومحرفي الكلم ، وعصبة الاثم ونفثة الشيطان ، ومطفئي السنن ، ويحكم أهؤلاء تعضدون ، وعنا تتخاذلون ! اجل والله عذر فيكم قديم وشجت عليه أصولكم وتأزرت فروعكم ، فكنتم أخبث ثمرة ، شجى للناظر ، وأكلة للغاصب

الا وان الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة ، وهيهات منا الذلة يأبى الله لنا ذلك ورسوله ، والمؤمنون ، وحجور طابت وطهرت ، وأنوف حمية ، ونفوس أبية من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام ، إلا وإني زاحف بهذه الاسرة على قلة العدد ، وخذلان الناصر .

أما والله لا تلبثون بعدها الا كريثما يركب الفرس ، حتى تدور بكم دور الرحى وتقلق بكم قلق المحور ، عهد عهده إلي أبي عن جدي رسول الله فاجمعوا أمركم وشركاءكم ، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ، ثم اقضوا إلي ولا تنظرون ، إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا وهو أخذ بناصيتها

ان ربي على صراط مستقيم » .

ثم رفع الحسين (ع) يديه نحو السماء وقال :

« اللهم احبس عنهم قطر السماء ، وابعث عليهم سنين كسنى يوسف ، وسلط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأساً مصبرة ، فإنهم كذبونا وخذلونا ، وانت ربنا عليك توكلنا وإليك المصير » .

وتقدم عمر بن سعد نحو الحسين ورمى بسهم ، وقال : اشهدوا لي عند الأمير أني أول من رمى ، ثم رمى الناس ، فلم يبق من أصحاب الحسين احد الا أصابه من سهامهم ، فقال الإمام الحسين لأصحابه :

« قوموا رحمكم الله إلى الموت الذي لا بد منه ، فان هذه السهام رسل القوم اليكم » فحمل أصحابه حملة واحده واقتتلوا ساعة ما انجلت الغبرة إلا عن خمسين صريعاً .

لم يكن الحسين بن علي ضعيفاً في موقفه هذا ، ولم يكن بالمتندم على اقدامه فقد وضع في احتمالاته كل هذا ، وأبعد من هذا ، وقد قالها صريحاً في المدينة ومكة لمحمد بن الحنفية ، وابن عباس ، وغيرهما ممن حاولوا اقناعه بعدم السفر ، ومقابلة يزيد ولكنه أراد أن يوضح للذين رافقوا الجيش الأموي ، وهم لا يعلمون حقيقة الأمر ، فان يزيد مقدم على عمله مع الحسين يخرق فيه أبسط مبادىء الإسلام .

ودارت الحرب سجالا ، وتبارت السواعد الشامخة تذب عن

ابن بنت الرسول وتدفع عن أهل بيته ، وحشية الجيش الظالم ، الذى ضرب كل القيم الخلقية ، عرض الجدار وطحن الموت فيمن طحن الاصحاب ، ثم آل علي ، وآل جعفر ، وآل عقيـــل ، والقريب والبعيد ولم يبق مع المذاعير من النسوة الهاشميات إلا الحسين وأخوه العباس .

ثم ما هي إلا فترة من الزمن ، حتى كان أبو الفضل قد التف عليه الأعداء من كل جانب ليمنعوه من وصول الماء إلى الحسين وأهل بيته وأطفاله ، وسقط أخوه ووقف عليه ، وعيناه المثقلة بهموم المأساة مشدودة إلى الجسم المضـرج ، وهـو يجود بنفسه ليهب روحه الكبيرة الغالية إلى ربه رخيصة في سبيل الحق .

كان الموقف عليه قاسياً ، والمعاناة لا تطاق، ورغم ما امض به مصاب أخيه وانحنى ظهره عليه ، ولكن لم ينهار .

فلم يشغله هذا الحال عن مقابلة الأعداء ، وقد تأهب لمنازلة القوم ، فانحدر إلى الميدان ، كأنه الأسد المصور ، لم يلتفت إلى ثقل الجراح ، وجهد العطش ، يقابل الموت ببطولة خارقة .

ولقد لفت الانظار ان الحسين بن علي قال فيه احد الرواة:
فو الله ما رأيت مكثوراً قط قد قتل ولده ، وأهل بيتـه ، وأصحابه أربط جأشاً . ولا امض جناناً ، ولا أجرأ مقدماً ، ولقد كانت الرجال تنكشف بين يديه إذا شد فيها ، ولم يثبت له أحد ..

وجال في الميدان ، وجالت معه عينا زينب ، وقد أكل الأسى قلبها لكنها صابرة محتسبة إلى النهاية المرة ..

لقد سمعت ، وشاهدت ما قاله أخوها ، وكيف اقتطفت السيوف الأبطال من أجلها ، ثم ترى الحسين ، وهو يرفع يديه المضرجتين بالدماء الزكية إلى السماء ، ويدعو ربه بخشوع الصابر المبتهل قائلا :

« اللهم فان متعتهم إلى حين ففرقهم فرقا، واجعلهم طرائق قددا ، ولا ترضي الولاة عنهم ابدا ، فانهم دعونا لينصرونا ، ثم عدوا علينا فقتلونا » .

وهدء الهدير ، وطاف في الأفق حزن ، ووجمت الساحة ، وذعرت عقيلة بني هاشم لعلها النهاية ،ولكن ما لبثت ان سمعت صوته مرة أخرى يشق صخب الجماهير العاتية ، وهو يعاني جهد الجراح ، وعبء العطش ، هل من ناصر ، هل من معين » .

وتمادى القوم في غيهم فقد صرخ فيهم قائدهم عمر بن سعد أن يهجموا على الحسين فيقتلوه .

وتناست زينب في هذه اللحظة القاسية مصائبها المرهقة بأخوتها ، وأولادها وأبناء اخوتها ، وأبناء عمومتها ،وكل شامخ من أهل بيتها ، وأصحاب أخيها ، تناست كل هؤلاء ، وانتهت إلى الحسين سيد شباب أهل الجنة ، وريحانة رسول الله بكل حواسها ، لم يبق لها أمل إلا الحسين سليل الماضين وثمال الباقين

ثم تسمعه بصوت ضعيف يقول :

« يا قوم : أعلى قتلي تجتمعون ، أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله اسخط عليكم لقتله مني ، وايم الله اني لا أرجو أن يكرمني الله بهوانكم ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون ، اما والله لو قتلتموني لالقى الله بأسكم بينكم ، وسفك دماءكم ، ثم لا يرضى بذلك منكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم » .

وانقطع الصوت ، وأزت العاصفة ، وشرقت الشمس ، وبدأت النهاية المؤلمة

فقد تزاحم القوم على الحسين ، وقتلوه وقطعوا رأسه ، وداسوا بخيولهم صدره ، وأظلمت الدنيا .

ولوى المصاب اضلاع زينب . فأظلمت الدنيا بعينيها .. وبدت مسؤوليتها ..

وبعد الزوال .. حملت الراية

وبعد الزوال بقليل ، وجم الميدان ، وحم الموت زائغاً تائهاً يقطف الأرواح ، ويخمد الأصوات .. وتناثرت الأشلاء المقدسة في ساحة المعركة هدأت الحرب ، وأغمدت السيوف ، ومسح الطغات أيديهم من دماء آل البيت وبدأت مهمة عقيلة بني هاشم فهي الوحيدة التي ستحمل راية الجهاد لتمثيل المرحلة الثانية التي يمكن اعتبارها مرحلة كشف الحقائق أمام الرأي العام في نهضة الحسين عليه السلام ، وعليها أن تتصرف بقوة البطل الشجاع وبقلب أخيها القتيل ، الذي قابل الموت في سبيل الدعوة بصمود عجيب ، وصبر ثابت أثار اعجاب الأعداء .

وكانت البداية ..

فقد شاهدت زينب أن الجيش الظافر بقيادة عمر بن سعد ، وإلى جانبه الوغد اللئيم شمر بن ذي الجوشن قد تجمعوا حول جسد أخيها الحسين وهذا هو الوقت المناسب لاعلان موقفها البطولي ، فخرجت من فسطاطها وقد شبكت كفيها على رأسها وهي تجر أقدامها جراً ، أثقلها هول المصائب ، وخطف لونها الحزن وقصدت جسد أخيها المهشم ، وهي تولول قائلة :

« ليت السماء أطبقت على الأرض » ..

وبلغ صوتها اسماع القوم ، فالتفتوا وإذا بزينب بنت علي ، فانفرجوا لها ، وقد علتهم الدهشة ، وعيونهم الحاقدة شاخصة إليها ماذا تريد ، وإلى أين تقصد ، وشقت طريقها وسط الجيش بقلب ثابت ، حتى وقفت على جسد الإمـــام الحسين (ع) ، فخضبت جبهتها من دم نحره الطاهر وهو جثة بلا رأس ، ثم وضعت يديها بين كتفيه ، وقد مزقته السيوف والرماح وترفعه قليـــلا عن الارض ، وامام تلك الجموع الشاخصة بأبصارها اليها ، ترمق السماء بطرف ملؤه الخشوع والايمان ، وتقول :

« اللهم تقبل منا هذا القربان » !!

أية كلمة على قصرها أبلغ من هذه الفقرة القصيرة الكبيرة بمضمونها واهتز المشاهدون لهذا الموقف ، فزينب لم تصرخ ، ولم تبكي ، انما قصدت جسد أخيها لتدعو الله أن يتقبل من هـذا البيت الطاهر قربان العقيدة ، وفداء الايمان .

وتقبل النحر الشريف . وتعود أدراجها إلى الخيام ، وهي تمر بالجيش وقد انفرج لها خطين ، فلم ترفع عليه عيناه ، وتهلع قلوب الظالمين لهذا المنظر البطولي ، وماج همس فيما بين المشاهدين ورددت الألسن قولة أبنة علي « اللهم تقبل منا هذا القربان » .

واشتد عمر بن سعد غيظاً وحنقاً ، لقد هزت هـــذه المرأة جيشه الظافر ، وأطارت نشوة النصر من رؤوسهم ، إذا كان

يحسب هو وجلاوزته الظالمين في ركابه ان جذوة آل علي قد خمدت بمقتل الحسين ، لكن الذي بدا، مزق هذا الظن البعيد عن الواقع ، فأي موقف أعظم وأهم من موقف هذه المرأة المثكولة باخوتها وأبنائها وأهل بيتها ، وكلهم كالأقمار في سماء هذه الدنيا — وهي تقابل هذه المأساة بهذا الكبرياء .

« اللهم تقبل منا هذا القربان » .. وهذه الكلمة التي سمرت قائد الجيش الأموي عمر بن سعد ، وأذهلته ، وأفقدته وعيه وحتى ذلك الفظ الجلف شمر بن ذي الجوشن،فقد أشاح بوجهه عنها ، ومهما حاول المشاهدون بالتظاهر باللا مبالاة ، لكن العوامل النفسية بدأت تتصارع في أعماقهم ، ولا نقول أن ضمائرهم تحركت ،فضمائرهم قد احتضرت منذ تحركهم للمعركة .

وان هذه الطغمة القاتلة ، قد أنعدمت في واقعها كل المثل الإنسانية والأخلاقية وقد سيطر عليها الحقد والوحشية ، ومع هذا فقد تأثرت بهذه الكلمة الخالدة .

واستطاعت زينب بقولتها البطلة هذه ان تجسد مفهوم الفداء من أجل العقيدة في أذهان هؤلاء القساة الأجلاف .

وهكذا افتتحت زينب موقفها الرسالي ، وبهذه الكلمة الخالدة بدأت مهمتها الشاقة .

وحاول ابن سعد أن يخفي فشله الذريع ، وما أصابه من زينب باشغال الجيش عن هذه المرأة ، فأمر بالهجوم على مخيمات

النساء وسلبهن وزاد ابن ذي الجرشن اضرام النار فيها، وكان ما أراد، وتلاشت العقول، وفقدت الضمائر، ولم يعد في ذهن هؤلاء الطغاة المارقين ان المسلوبات بنات رسول الله ، وهم يحاربون باسم الإسلام ، وبأمر الخلافة المزعومة ، وان الضمير إذا انعدم فلا يقف بعدئذ أمامه اي شيء . وهذا ما اثبته الجيش الكوفي يوم كربلاء ، وأثبتته الوقائع المحزنة المؤلمة .

ومرت ليلة الحادي عشر من محرم حزينة ساهرة الأضواء، خمدت قناديل آل علي ، وجف بريق رجالهم . ولم يبق مع المذاعير من النسوة إلا فتى أنهكه المرض ، وأجهده العطش ، ذلك هو زين العابدين ، وقد زاد المصاب شحوبه ونحوله ، وكانت عمته زينب تساعده على تقلبه في فراش المرض ، وقد ذهب من الليل ثلثاه ، قال لها :

عمتاه : استعدي للسبي والرحيل إذا طلع علينا صبح غد ، فان القوم يصممون على تنفيذ مخططهم ، وانقطع كلامه فقد خنقته موجة الأسى فشتت منه الكلمات ، وثاه على شفته التعبير :

ولم تكن مهمة زينب محصورة بادارة النسوة ، والأطفال اليتامى ، انها هي محملة برسالة أكبر من هذه ، تلك استمرار الثورة في وجه الباطل ، واعلان الغاية التي ضحى من أجلها الحسين عليه السلام .

وانبثقت أضواء الصبح ، وجمعت عقيلة بني هاشم النسوة

والأطفال ، في خيمة واحدة استعداداً للطوارىء .

وأعلن عمر بن سعد السفر إلى الكوفة ، وحمل رؤوس المقتولين على الرماح محاولة منه في اظهار حقده على آل بيت الرسول واصحابه ، واركب النسوة والأطفال على جمال من غير غطاء ولا وطاء امعاناً بذلهم ، لينعم بالجائزة من أميره الفاتح عبيدالله ابن زياد ، وليحث المسير اليه ، فهو على جمر الغضا ينتظر أوبة الجيش بالسبايا بعد أن بلغه مقتل الحسين .

ومنظر الموكب مرهق للغاية ، النساء مكبلات بالحبال والحديد ، والأطفال في اسمال بالية لم تمنع عنهم حرارة شمس ، وعلي بن الحسين ، مثقل بالحديد والقيد على ناقة مطوق بها كي لا يسقط عنها .

وقال شمر لابن سعد : ليكون مرور الموكب على ساحة الحرب زيادة في تعذيب الأسرى ، ولم يمنع ابن سعد ذلك ابن الجوشن ان منع من تحقيق رغباته فقد يسيء اليه في استلام الجائزة من ابن زياد ، وهي غايته القصوى .

ومر الموكب الحزين على مصارع الأحبة ، وهم أشلاء متناثرة ، مقطعة الرؤوس أكلتهم السيوف ، ومزقتهم النبال وصهرتهم الشمس ، وغيرتهم الرياح ، ولمحت زينب هذا المنظر المثير ، هاج بها الحزن ، فوجهت بوجهها شطر مدينة جدها الرسول وخاطبته قائلة :

« يا جداه ، يا محمداه، صلى عليك مليك السماء ، هذا الحسين بالعراء ، مزمل بالدمـــاء ، مقطع الاعضاء ، وبناتك سبايا .. فإلى الله المشتكى » .

وتعالى البـــكاء من الموكب الحزين .. فسكتت زينب ، وأسكتت الركب كي لا يشمت بهم العـــدو ، ولملموا حزنهم ، ومسحوا عيونهم ، وتابعوا السير . وفي مقدمة الموكب ،شمر بن ذي الجوشن وبطانته ، وقد عرفوهم بأن :

« شمر بن ذي الجوشن ، لم يكن شمر هذا إلا جلفاً جافياً ، كان بهيمة في صورة آدمي ، قد اتهموه انه لا يحكم من كتاب الله آيتين ، ولا يبالي أن يرمي السهم من قوسه حيثما عن له ، لا يعرف حلالا ولا حراما .

وقيس بن الاشعث ، وأبوه أحد المتهمين في دم علي ، واخته « جعدة » قاتـلة الحسن بن علي بالسم في مال جاءها من معاوية ابن أبي سفيان .

وعمرو بن الحجاج ، وكان مارقاً يظن الدين حيث وجـــد المال ، وكان من أشد الناس تحريضاً على قتال الحسين ، وحسبه خزيا وعارا انـه كان أول من شد على أهل البيت وأنصارهم ، فصرع أول أصحاب الحسين « مسلم بن عوسجة » .

مضى هؤلاء يخوضون الارض بآثامهم ، ليقربوا بهـــا إلى مواليهم ، ومن خلف هؤلاء جميعاً عمر بن سعد مزهواً فخوراً .

ولقيه في أحد المنازل أحد أصحابه فرآه مزهواً فخوراً فقال له :

ويحك يا بن سعد : قتلتم ذرية رسول الله .

فقال الرجل – ولم تتكسر فيه سورة النصر الهزيل – : عضضت بالجندل ، لو شهدت ما شهدناه لفعلت ما فعلناه . ثارت علينا عصابة أيديها في مقابض سيوفها كالأسود الضارية ، تحطم الفرسان يميناً وشمالاً ، وتلقي أنفسها على الموت ، تقبل الموت ، ولا ترغب في المال ، ولا يحول بينها وبين الورد على حياض المنية والاستيلاء على الملك ، فلو كنفنا عنها رويداً ، لأتت على نفوس العسكر بحذافيرها ، فما كنا فاعلين ، لا أم لك » .

لعنك الله يا ابن سعد ما أشقاك يوم تلقى محمداً علياً ، فاطمة ويداك مضرجتان بدم ريحانتهم الحسين ، فما هو عذرك ؟ ! ماذا تقول لهم ؟ !

وتمزق الطاغية

وقال الشيخ أبو معاذ لمحدثيه :

ولم تكن الكوفه بالغريبة على زينب فقد عاشت فيها فترةمن الزمن يوم كان أبوها أمير ء المؤمنين علي (ع) قـــد اتخذها مقراً لخلافته ، فانتقلت اليها مع من انتقل من آل علي ، وعانت فيها هول المأساة حينما دارت رحى الحرب على أبيها ، أو حينما قتل في مسجدها ، أو حينما خذل أخوها فيها،كل هذه صور مروعة مهما يحاول الإنسان أن يقتلعها من مخيلته لم يتمكن،لأنها متراصة في الذهن ، كامنة في أعماق لا يمكن انتزاعها بسهولة .

وزينب عندما بدء الرحيل ، وأعلن أنه إلى الكوفة دارت كل هذه الصور بذهنها ، بالاضافة إلى ما هي فيه من صميم ، وذل ومأساة ، وماذا سيكون موقفها في هذا البلد بعد ان ينكشف أمرها ، وحتماً سينكشف ، ومهما حـــاول ابن زياد أن يخفى الحقائق ، ويعلن أن سبايا من الترك والديلم سيمرون اليوم فان خبر حرب الحسين لم يبق بيت من بيوت الكوفة الا ويطرقه هذا البناء وان الموكب الفاتح على مشارف الكوفة ، فتهرع الناس لمشاهدته .

والناس بطبيعتها قد تأخذ بأمر من الأمور ، وتنساق معه ، وإلى أبعد الحدود ، مجارات للوضع العام ، لكن بعد برهة ، أو بمناسبة ما تصاب برد فعل معاكس وتتضح لها الحقائق ، وتثوب إلى رشدها فينقلب الوضع على نفسه .. ولهذا فان ابن زياد قد اتخذ الحيطة ، وحسب لكل الاحتمالات حسابها ، وما حاول أن يعلن عن وصول السبايا مسبقاً تحفظاً من كل هذه الاحتمالات .

وزينب البطلة ، والتي بدأ دورها ، وحملت راية الرسالة ، أيضاً حسبت لكل هذه الاحتمالات حسابها رغم ما أصابها من جهد وذهب وصية أخيها الحسين ترن في اذنيها بأنها المسؤولة عن تحقيق أبعاد النهضة ، فلا مجال للعاطفة في هذا المضمار .

يقول القائلون : « لقد توقعت الدنيا يومئذ أن تحنى الكارثة جباه من بقى من آل بيت الحسين .

ولكن الطاهرة البتول « زينب بنت علي» وحفيدة الرسول، سرعان ما ردت للدنيا صوابها ، حين أرتها من عظمة هذا البيت كل عجب » .

« انتهى السير بالقافلة الحزينة إلى الكوفة ، واستقبلتهم الجموع المتعطشة إلى معرفة هؤلاء السبايا ، فقد سبقتهم الأخبار بأنهم من سبايا الترك والديلم ولكن المتمعن بهذه النسوة ، وهؤلاء الأطفال ، يشعر ولأول وهلة أن أثار الحشمة تعلوهم وان ما يحف

بهم من جزع ، وهلع يبعدهم عن الترك والديلم .

ومهما كان الهمس يتصارع فوق شفاه النساء والشيوخ الذين قعدوا عن المعركة ، فان المنظر القاتم الذي يرافق القافلة قد جذب شفقة الناس عليه ، وان حالة الأطفال المروعين قد استنزف الدمعة من العيون حناناً لهم .

وبادرت النسوة إلى بيوتهن يحملن الطعام والتمر ، ويلقون للصبية والأطفال ، والذين شحبت وجوههم من العطش ، وعلتها الصفرة من الخوف ، والفزع ، وجمدت عيونهم من وقع المصاب .

وكانت زينب لهذا الموقف بالمرصاد ، فهي البادرة الأولى في الكوفة لتوقظ الناس من سباتهم ، فقد دارت بسرعة حول الصبية والأطفال وأمرتهم أن يلقوا ما بأيديهم من الطعام والتمر ، ويمتنعوا عن أخذ ما يعطونهم وعلت الناس الدهشة ، وسيطر عليهم العجب ، وفجرت زينب القنبلة صارخة وسط الجموع المحتشدة عليهم :

« يا أهل الكوفة : نحن أهل البيت ، لا تحل علينا الصدقات ، وأصاب النساء مثل الأفكل ، ماذا تقول هذه المرأة .. أي بيت هذا الذي يرد للناس طعامهم ، وهو خمصان قد أضواه الجوع ، وطواه الطوى » ..

شر عجيب والله ..

وشقت واحدة من النساء الصفوف إلى المرأة المتكلمة ، برغم سياط جند ابن زياد فلم تبال ، ووصلت اليها ، وقالت لها : من أي الأسارى أنتن ؟ ورمقتها زينب بنظرة طويلة ملؤها العطف والشفقة ، وردت عليها : نحن أسارى أهل البيت ، من آل محمد » ...

وفزعت المرأة مذهولة مرتدة على أعقابها ، وهي تصيح : « الأسارى من أهل البيت ، من آل محمد » ...

وسارعت النساء اليها ليسمعن ماذا تقول ، وكاد الرعب يفقدها لسانها وحاولت أن تتكلم فخانها التعبير ، وبعد جهد قالت :

أنهن نساء آل بيت محمد . وأظنها زينب ..

وسار اللغط بين النسوة ، ثم تصاعد فأصبح بكاء ، ثم تعالى إلى صراخ ، وهز الكوفة ، وكلما حاول جلاوزة ابن زياد بطبولهم وأبواقهم أن يخمدوا اصداء الناعيات فلم يتمكنوا ، وكان خير علاج لهذه المشكلة أن أمر ابن زياد أن يدخلوا السبايا إلى قصره ، ويقطعوا المسيرة فقد أمر مسبقاً أن يلغوا بالسبايا شوارع الكوفة وازقتها قبل دخولهم عليه ـ ولكن الآن قد تبدل الموقف ، وطلب التعجيل بوصول السبايا اليه وكان ما أراد ...

ما أشد هول الموقف على زينب . لقد كانت بالأمس سيدة القوم ، ابنة خليفة ، وأخت خليفة عرفها هذه البلد ، وكرمها

بما يليق بمكانتها ، وتدور الأيام ، وتدخل هذه المدينة ، وتدخل هذا القصر ، سبية ، مثكولة ، مهانة ، بين يدي اجلاف ما عرفت الرحمة طريقا لقلوبهم ، ولا الشفقة ظلاً في حياتهم

وكيفما كان فقد أدخل الموكب الحزين قصر الامارة ،وحشر الأسرى في صالة كبيرة ، وأخذ ابن زياد يستعرضهم .

« وتوقع ابن زياد قبل أن يواجه آل بيت الحسين،انه سيلقى انكساراً وضياعاً يستدران العطف من قلبه الجبان .

لكن أخت الحسين ، البطلة .. أخت البطل .. وبنت البطل .. علمته - ان كان لمثله أن يتعلم - ان الهزيمة التي يتفجع لها الناس ويستكنون ، انما هي هزيمة الروح .

وما كان ولا يكون لدعاة الحق وحملة راياته ان تنهزم أرواحهم أبداً .. ولا أن تنحنى جباههم أبداً .. ولقد لقنته هذا الدرس » ..

فقد لمح ابن زياد زينب ، وعليها من دلائل الحشمة والهيبة ما أثار انتباهه ، فسألها من تكون ؟ فلم تجبه وكرر السؤال ، ثانية وثالثة ، وهي صامتة لم ترد عليه ، وثار ابن زياد غاضباً ، ولم ترهب ودمدم في مجلسه فلم تبال .. وردت عليه احدى اماثها قائلة :

انها زينب بنت علي ابن أبي طالب !! ..

واهتز ابن زياد ، وطاش صوابه ،وأخذ يوعد ويردد بصورة

لا شعورية زينب ابنة علي. زينب ابنة علي.. وجمدت الكلمات على قسماته المتشنجة .

لعل الحقد أخذ يعصر قلبه القاسي، فيحيله إلى جمرة ملتهبة من الغيظ .. ولعل ذكريات علي العالقة في ذهنه بدأت تتلوى في صدره فكادت تخنقه .. ولعل لا هذا ولا ذاك صار يغلي في أعماقه كالمرجل ، وبات يفقد ساعتها أعصابه فيهذر كالمجنون .

ولم يكتف الطاغية بما جرى لهذا البيت في كربلاء ،ودماء الشهداء بعد يانعة لم تجف من نحورها ، ورؤوس المقتولين بين يديه لن يخمد عنها سناها.ورغـــم أنه في زهوة النصر ،بيد أن ذكرى هذا البيت يؤرق عينيه ، ويمزق قلبه ، وحتى لو كان شبح امرأة ، وكيف والمتكلمة زينب ؟ وقد احتقرته أشد الاحتقار ، ولم تأبه به حينما دخلت المجلس فجلست ،ولم تنتظر منه أمراً بالجلوس ، ثم لم تسلم عليه ، أو تعتد به ، حتى إذا سأل عن اسمها تجاهلته تماماً .. أي احتقار يعنى به ابن زياد أكثر من هذا الاحتقار ، خاصة وأن المجلس يضم الكثير من المرتزقة والذين لا يعرفون عن أمر السبايا شيئاً سوى أنهم سبايا من الترك والديلم مثلوا بين يد الأمير .

ولهذا فعندما ردت احدى امائها بأنها زينب بنت على بن أبي طالب ذهل الناس وحتى الذين كانوا يعرفون حقيقة الأمر ،وتمزق الطاغية رعباً ، انها بنت الأسد فحاول أن يلفلف الموقف فقال

وهو يفتعل الزهو والكبرياء لزينب :

الحمد لله الذي فضحكم ، وقتلكم ، وأكذب أحدوثتكم .

ولم تتركه يتم كلامه ، بل قاطعته ، وبكل جرأة وصلابة قائلة :

« الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه محمد (ص) ، وطهرنا من الرجس تطهيراً ، انما يفتضح الفاسق ، ويكذب الفاجر ، وهو غيرنا يا ابن زياد » .

واشتد الغضب بابن زياد ، لقد ساءه جواب زينب — رغم انها أسيرة بين يديه ، وتحت سيطرته — وعاد يسألها : كيف رأيت صنع الله بأهل بيتك » .

فردت عليه بكل ايمان وكبرياء قائلة :

« كتب الله عليهم القتل ، فبرزوا إلى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم متحاجون اليه وتختصمون عنده ، وأنظر لمن الفلج يومئذ .. ثكلتك أمك يابن مرجانة » .

وأغرق في الخزي ، وحاول أن يخفي ما أصابه بالهجوم على زينب بالسوط فيمنعه بعض مرتزقته ، فيقول لها — وموجة الخزي تغطي وجهه —

لقد شفى الله نفسي من طاغيتك الحسين ، والعصاة المردة من أهل بيتك .

ولكن العقيلة حاولت أن تنهي الفصل مع هـــذا الشقي ،

لأنه لا يتورع من قتلها ، وقتل علي بن الحسين ، لذا ردت عليه باقتضاب قائلة :

« إن كان هذا يشفيك فقد اشتفيت » .

ويأمر ابن زياد باخراج السبايا إلى خربة في الكوفة ليبقوا فيها حتى يرى أمره فيهم . ويدور همس في ارجاء القصر .. إذا كان الامير حساب مع الحسين فما ذنب هذه النسوة وفيهن بنات محمد ؟ .

ولف الخبر ارجاء الكوفة ، وتراكض النسوة حول السبايا يستطلعن أوضاعهن ، وتجمعن حول عقيلة بني هاشم ، ورأت الوقت قد حان لأن تفجر الموقف وتكشف حقيقة الأمويين . فأومات إلى النساء فسكتن ، وارتدت الأنفاس ، ليسمعن مـــا تقوله السبية وتقاطر الرجال يسمعون زينب بنت علي .. وهدرت كأنها البركان .

« أما بعد : يا أهل الكوفة ، يا أهل الختـــل والغدر ، أتبكون فلا رقأت الدمعة ولا هدأت الرنة . انما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً ، تتخذون ايمانكم دخلا بينكم ، الا وهـــل فيكم إلا الصلف النطف ، والعجب ، والكذب والشنف وملق الأماء ، وغمز الأعداء ، أو كمرعى على دمنة ، الا بئس ما قدمت لكم أنفسكم ان سخط الله عليكم ، وفي العذاب انتم خالدون .

أتبكون وتنتحبون ، أي والله فابكوا كثيراً ، واضحكوا قليلاً ، فلقد ذهبتم بعارها وشنارها،ولن ترحضوها بغسل بعدها أبداً ، وانى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة، ومعدن الرسالة، ومدار حجتكم ومنار محجتكم ، وملاذ خيرتكم ، ومفزع نازلتكم ، وسيد شباب أهل الجنة الاساء ما تزرون .

فتعساً ونكساً وبعداً لكم وسحقاً ، فلقد خاب السعي ، وتبت الأيدي وخسرت الصفقة ، وبؤتم بغضب من الله ورسوله، وضربت عليكم الذلة والمسكنة .

ويلكم يا أهل الكوفة،أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم؟ وأي كريمة له أبرزتم وأي دم له سفكتم؟وأي حرمة له انتهكتم؟ لقد جئتم شيئاً إذاً ، تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدا .

ولقد أتيتم بها خرقاء ، شوهاء . أفعجبتم أن مطرت السماء دما ، ولعذاب الآخرة أخزى، وهم لا ينصرون . فلا يستخفنكم المهل،فانه لا يحفزه البدار ، ولا يخاف فوت الثأر، وان ربكم لبالمرصاد » .

وسكتت زينب عن الكلام . وتاه الناس في خطبتها الجريئة ، رغم ثقل المأساة ، وهول الفادح ، حتى قال القائل من أهل الكوفة :

والله لم أر خفرة أنطق منها ، كأنها تفرغ عن لسان علي !!

وتركت زينب أهل الكوفة في اضطراب . بعد أن لفعت الرجال بالخزي فباتوا في جـزع ، وهزت النساء وحرضتهم على أولئك الذين حاربوا الحسين فعلوا ما فعلوا .

يقول الراوي :

« فوالله لقد رأيت الناس يومئذ حيارى ، كأنهم كانوا سكارى ، يبكون ويحزنون ، ويتفجعون ، ويتأسفون ، وقد وضعوا أيديهم في أفواههم ..

قال . ونظرت إلى شيخ من أهـل الكوفة كان واقفـاً إلى جنبي ، قد بكى حـتى أخضلت لحيته بدموعه ؛ وهو يقول : صدقت بأبي وأمي ، كهولكم خير الكهول ، وشبانكم خـير الشبان ، ونساؤكم خير النسوان ، ونسلكم خير نسل،لايخزى ولا يبزى ..

وانتهى الخبر إلى ابن زياد .. أن زينب قلبت الأفكار حوله بخطبتها فطار صوابه ، وتلبد جوه

لقد ضلل ابن زياد الناس ، وسيطر على أفكارهم بالـترغيب والترهيب فقاموا بما قاموا في ظل الجو المرعب ، لكن هذا لا يمنع من أن الناس أخذت تفيق من غفوتها،وتفهم موقف الأمويين من آل البيت عليهم السلام ، وبهـذه الفضاعة حتى أن بعض الأشخاص ممن كان ابن زياد يقربهم اليه ، ويستند عليهم في مجلسه للتأثير على الرأي العام ، أمثال : زيد بن أرقم ،وأنس بن مالك،

أخذوا في التعريض به وبصورة علنية . ومن ذلك ما روى عن زيد بن أرقم حينما شاهد رأس الحسين بين يدي ابن زياد ، وهو ينكث بالقضيب ثناياه ، قال له زيد : ارفع القضيب عن هاتين الشفتين ، فوالله الذي لا إله إلا هو ، لقد رأيت شفتي رسول الله على هاتين الشفتين يقبلهما ، ثم بكى .. فقال له أبن زياد : أبكى الله عينيك ، فوالله لولا أنك شيخ قد خرفت ، وذهب عقلك ، لضربت عنقك .

فخرج زيد من المجلس وهو يقول :

أيها الناس ، أنتم العبيد بعد اليوم ، قتلتم أبن فاطمة ، وأمرتم ابن مرجانة ، يقتل خياركم ويستعبد شراركم ، فرضيتم بالذل ، فبعداً لمن رضي بالذل .

وكان لانس بن مالك موقف مشابه مع ابن زياد ، ولم ينتهي بهذا ، بل حدث أكثر من هذا .

فقد أمر ابن زياد ان ينادى بالناس الصلاة جامعة فاجتمعوا في الجامع ورقى ابن زياد المنبر ، فقال : الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن علي وشيعته ..

فقام اليه عبد الله بن عفيف الأزدي ، وقال له :

يا ابن مرجانة ، الكذاب ابن الكذاب ، أنت وأبوك ، والذي ولاك وأبوه . يا ابن مرجانة ، أتقتلون أبناء النبيين ،

وتتكلمون بكلام الصديقين ؟

فقال عبد الله من هذا المتكلم ؟

قـال ابن عفيف : أنا المتكلم ، يا عدو الله تقتلون الذرية الطاهرة التي اذهب الله عنهم الرجس ، وتزعم انك عـلى دين الاسلام . واغوثاه اين اولاد المهاجرين ، والأنصار لينتقموا من طاغيتك ، اللعين ابن اللعين على لسان محمـد رسول رب العالمين .

وانتهت المحاورة بقتل عبد الله بن عفيف الأزدي .

هذه مظاهر احدثتها مواقف زينب في ضمن هذه الأيام القليلة التي بقيت فيها بالكوفة ، واحدثت بوادر رد فعل معاكس في صفوف جماهير الكوفـة ، بحيث اضطر ابن زياد إلى ان يأمر بتسفير السبايا إلى الشام ، قبل ان يأتيه خبر يزيد بأمرهم . خشية ان يتفاقم الأمر ، ولا يهمه وعثاء الطريق وان الموكب الحزين لم يسترح بعد من جهد السفر ، ومشاق السير ، المهم ان يعمد ابن زياد على ابعاد هذا الموكب عن الكوفة كي لا تنقلب عليه ، وقلوب الكوفيين ميالة ، وسرعان ما تنساب في كون جديد . فيوم مع علي ، واخر عليه ، وتارة مع الحسن ، ومرة ضده ، وهكذا . واخيراً ، وليس اخراً تكتب للحسين ان اقدم فقد اخضر الجناب ، واينعت الثمار وانما تقدم على جند لك مجنده .. وبين عشية وضحاها اذ بالقوم الذين كتبوا للحسين

ان اقدم للمبايعة ، هم الذين قتلوه ، وسبوا عياله ، وصفقوا لابن زياد بالنصر .. وهذا كله لم يخف على ابن زياد ، خاصة ، وان زينب وآل الحسين بدؤا يكشفون الحقائق ، بمواقفهم الكلامية ، ولم ينفع مع الناس ، عنف جلاوزة ابن زياد بابعادهم عن خربة السبايا . فأصدر امره بالتوجه إلى الشام ..

وبيع

وَانحسَرَ الضبَابُ

وكان الشيخ أبو معاذ يغص في حديثه. فلقد خالطه حزن عميق ، ولم يكن موقف ابن زياد من سبايا الحسين موقف الرجل الذي يحمل في عرقه شهامة ورجولة ، فلقد بلغ بهذا الوغد الحقد ، والخسة ان عمل مع آل رسول الله (ص) كلما توصل ذهنه وفكره ، وكلما حاول المتحدث أن يصف هذا الموقف الجائر لخجل القلم من الاسترسال ، ووقف واجماً حزيناً .

يقول الراوي :

ان ابن زياد عقد مجلساً خاصاً مع شمر بن ذي الجوشن ، وشبث بن ربعي وعمرو بن الحجاج وجماعة تداول فيه كيفية ارسال السبايا إلى دمشق ، ومع من؟ وتم الاختيار أن يكون زجر بن قيس ، وأبو بردة بن عوف ، وطارق بن أبي ذبيان قادة الموكب ، وما ولدت أم شراً من هؤلاء الثلاثة ، وأمر على الموكب شمر بن ذي الجوشن ، ومعه جماعة من اتباعه ، ممن باعوا ضمائرهم لابن زياد ، وسلبت الرحمه من قلوبهم .

ولم يكن السفر من الكوفة إلى الشام بالسهل اليسير ، فقد عرف الطريق بالوعورة والمصاعب ، ولم يكاد السائر فيه يبلغ

الشام حتى يقطع من عمره أكثر من شهر على الابل الصابرة المجدة.

ولكن ابن زياد أراد أن يكون الطريق بأقل كثير من هذه المدة ليضرب عصفورين بحجر واحد : أولا – الامعان في اجهاد السبايا ، واذلالهم ، وثانياً تفادياً لكل الاحتمالات التى تنشأ من تنقل الموكب – حسب طبيعته في القرى والمدن التي يمر بها ، وخشية ردود الفعل فيها ، قال الراوي :

« لقد كان مسيرة الطريق شهر للابل ذوات الصبر والقوة ، ولكن الحداة الغلاظ ارهقوا قدرتها ، وأوجعوا صبرها ، فقطعت الإبل في عشرة أيام أو دونها ما كان عليها أن تقطعه في شهر أو أكثر ، وكأنما سالت امـــام الابل عثرات الطريق لتحط عن قريب بعض أوزار القوم ، ولولا أنها كانت تحمل عفافاً وطهراً ليس مثله في الارض عفاف وطهر ، لألقت بأحمالها حين كانت تفزعها أصوات الحداء ، وكأنها حست بما تحمل ، وحنت لرنة الحزن من فوقها فسارت وأسرعت ، كأنها لم تسمع من قبل برنة حزن كـما سمعت في هذا البكاء .

وسير بالسبايا في اعتساف وارهاق ليل نهار ، وسير بهن من خلف الرؤوس كلما كان يسار بالسبايا من الحروب ، وكان سير شمر بن ذي الجوشن أميراً لهذا الركب سبباً في أن يصوم أهل البيت عن الكلام ، فما نبست منهن نابسة بكلمـــة ولا أشارت واحدة منهن باشارة ، وكان إذا حدث أحد نفسه بالكلام أو

علا صوته بالبكاء قرعه الفرسان بالرماح

وجعل ابن ذي الجوشن كلما مر ببلد أرسل اليه قبل أن يدخله أنه موكب رجل خارجي خرج على أمير المؤمنين ،فإذا جازت الكذبة على القوم مرّ بالبلد ، وإذا لم تجز الكذبة ، أو خيف البلد مال منه ، ولم يعرج عليه .

وطالما مال الركب عن الطريق التي تسلكها الابل ،وخاصة البرية والرمال خوفاً من غضب الناس إذا علموا فثاروا ، فاذا خرج ابن ذي الجوشن من بلد وقربه ليلا أصبح يتفقد أثواب الركب ، فلعل أهل البلد جاءوا بشيء زائد فيأخذه منهم » .

وعلى هذا اللون من المنت والجهد ، طوى الركب الفيافي والقفار ، حتى لاحت الشام وبدأت مشارف عاصمة الأمويين ، ولم يكن بالسهل على زينب وبنات على أن يدخلن بلد أعدائهن على هذه الحالة التي هي فيها ووددن أن تنشق الأرض، وتبتلع الركب ، ولا يتشمت بهن يزيد وأتباعه .

وفكرت أم كلثوم بنت علي أن تعمل على ابعاد الانظار عنهن ، فأرسلت إلى شمر بن ذي الجوشن — بصفته قائدالجيش تسأله أن يدخلهم عن طريق قليل النظار ،وأن يأمر حملةالرؤوس أن يخرجوامن بين المحامل لكي لايشتغل الناس بالنظر اليها، فقد خزيت بنات الرسالة من كثرة النظر اليهن .

والغريب أن تفكر أم كلثوم بأن ابن ذي الجوشن رجل له

ضمير وأخلاق فتطلب منه هذا الطلب ، وتناست ان هذا الرجل الممسوخ ، قد انتزعت الرحمة من قلبه ، فلم يعد يعرف معنى القيم الانسانية والأخلاقية ، فهو فظ غليظ يقطر لؤمـــاً ، وينفث حقداً ، فقد كان بامكانه ان لا يستجيب لطلب ابنة علي، وحفيدة رسول الله ، لكنه دفعه لؤمه وحقده ، بأن يمعن في ايذاء هذه السبايا ، ويتوغل في هتكهن بكل ما يستطيع ، والاناء ينضح بما فيه .. فقد أمر شمر حاملي الرؤوس أن يرفعوها على أطراف الرماح ، وأن يتفرقوا في وسط المحامل بما يجلب النظر اليهـا ، ثم أمر أن يأخذ الركب طريقاً يغص بالناس ، كي يزيد الأذى على بنات علي .

إن هذا الانسان الوحش كان يتحرى الفرصة في إيلام السبايا بكل ما يتوصل اليه حقده ولؤمه ، ويكفي أن أحد زملائه يسأله فيقول له : يا ابن ذي الجوشن ، هل شفيت قلبك من الحسين وآله .. وبكل صلافة . قال لا ، وحتى لو قتلت هذا الركب كله ، ولم أبق لآل علي ذكرى ، فإن كرهي لهم لم يجف .

لعنك الله يا ابن ذي الجوشن ، فأي أم ولدتك ، وأي أب قذفك في لجة الظلام ، فخرجت للدنيا ، وانت لم تفتح عينيك على نور ، وانما بقيت في ظلامك الدامس تمزق السنين بأنيابك لتكون حجارة جهنم في آخرتك وحربة مسمومة في دنياك ».

ومر الموكب في شوارع دمشق العامة حتى بلغ قصر يزيد ،

وهو يعلم ان الموكب على مقربة منه . فجلس مزهواً مفتخراً ، تماماً كما فعل واليه ابن زياد في الكوفة - وكلاهما من طينة واحدة - وحوله الأشراف - ان كان فيهم شريف - وكبار الدولة ، وأخذ ينشد أمام هذه الجموع .

لما بـــدت تلك الحمول وأشرفت
تلك الرؤوس على شفـــا جيرون
نعب الغراب، فقلت: قل أو لا تقل
فلقد قضيت من الرسول ديوني

ولم تخف أقوال الجلاوزة ان هذه السبايا من الترك والديلم ، فقد دب الهمس هناك وهناك بأن آل بيت الرسالة هم السبايا .. وأدخلت بنات محمد على مجلس يزيد ، وقـــد اكتض بالجموع الحاشدة ، وفيها من رأى الحسين ، وسمع حديثـــه ووضعت الرؤوس بين يدي خليفة معاوية ، وممثل المجد الأموي . وساد وجوم كثيف واشرأبت الأعناق ، وحملقت العيون إلى الرؤوس والسبايا وهي بين يدي طاغيـة ابن طاغية ، قد أخذ النصر منه مأخذاً فراح يترنح فرحاً ونشوة . ولكن سرعان ما طاف في المجلس وجوم غريب ، وذهول سيطر على الجالسين ، وقطع حبل الصمت شامي قام في المجلس وخاطب يزيد :

يا أمير . هب لي هذه الجارية ، وأشار إلى فاطمة بنت الحسين .. وارتعدت فرائص فاطمة ، ولاذت بعمتها زينب مذعورة .

فقالت له زينب . كذبت والله ولؤمت ، ما كان لكذلك، ولا لأميرك .

وبهذا الجواب القاسي لفتت أنظار الجالسين، وجلبت انتباههم أكثر من ذي قبل ، وشعر يزيد بالهوان ، واراد أن يداري خزيه فالتفت بغضب قائلاً :

لو أردت ذلك لفعلت .

وهنا لاحظت عقيلة بني هاشم أن الوقت حان لتكشف الحقيقة للناس ، فإن المعركة بدأت ، وكل الجالسين كأن على رؤوسهم الطير ، يسمعون هذا الحوار الدائر بين خليفتهم ، وبين هذه السبية الجريئة .. إن زينب كانت تعلم أن السواد الأعظم من الناس يعرفون عن هذا السبي انه من الترك والديلم ، والقليل يعرف واقع الأمر ، وهذا القليل لا يستطيع أن يتصرف، فيزيد لا يهمه أن يقتل أو يسجن في سبيل إتمام شوطه ، والتضليل مهما طال لا بد أن ينكشف، ولا يوجد خير من هذه الفرصة، فلتمسك بزمام الموقف ، لهذا ما ان رد عليها يزيد بأنه لو شاء أن يفعل لفعل ، ردت عليه بصرامة وصلابة : «كلا ما جعل الله ذلك لك، إلا أن تخرج عن ملتنا ، وتدين بغير ديننا ».

وهذه بداية ثورة البركان .. وطفى تساؤل على الشفاه ، لكنه سرعان ما ذبل وغاب خوفاً وخشية .. أي عبارة هذه تلقيها السبية على الخليفة الأموي « الا ان تخرج من ملتنا، وتدين

بغير ديننا » . ولا بد أن يكون وراء الاكمة شيء لهم ويخترق الاسماع صوت يزيد وهو في غضب مستعر يقول للسبية .

انما خرج من الدين ابوك وأخوك ..

وهذا ما كانت تريده زينب ، فقد جرته للمصيدة ، ووقع بها الغبي من دون أن يشعر ،فيزيد كانت تعوزه لباقة أبيه معاوية في مثل هذه المواقف فقد كان يتمكن من التحايل والخروج من المأزق ،لكن المغرور الصلف ولده لم تعد له تلك القابلية ، ولهذا انهت زينب المعركة ، وفجرت القنبلة ، فردت عليه بالسرعة وبكل جرأة ، وباصرار الأبطال : « بدين الله ، ودين جدي ، وأبي وأخي اهتديت انت وجدك ، وأبوك ان كنت مسلما » .

وساد وجوم على المجلس برهة من الوقت ، فقد انكشفت الحقيقة جلية دون لف ودوران ، إن هذه السبايا لم تكن من الترك والديلم — كما يقولون - انما هم من بنات الرسالة ، وأخذت الأذهان تستوعب ما وراء الحوار العنيف الذي دار بين يزيد والسبية .

ولم يكن يزيد من تغير الموقف ، فقد اتضح الأمر رويداً رويداً ، وصار يغلي كالمرجل من الغضب ، وبدأ الصمت يسيطر على المجلس ، وكأنه غاب كل واحد في تفكير عميق يستجلي ما وراء الحوار .. وكأن الشامي الذي أثار هذه المشكلة لم يشأ السكوت والاكتفاء بما حدث ، بل قام ثانية يسأل خليفته

بأن يهبه هذه الجارية ، فما كان من يزيد أن زجره ، ونهره ، وصاح به :

أغرب وهب الله لك حتفاً قاضياً . تعلم من هذه ؟

فيقول الشامي : أليست سبية من الترك والديلم :

وبصلافة يقول له : انها فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب ، حفيدة رسول الله ..

فبهت الشامي ، وعلته الصفرة ، وقال وصوته مشوب بالبكاء – سود الله وجهك تقول انهم سبايا من الترك والديلم ، بماذا أعتذر غداً لرسول الله .. وكاد المجلس يضطرب ، فيأمر يزيد باخراجه من المجلس .

وعاد الصمت إلى المجلس ، وشاء يزيد أن يظهر للناس قوته وكبريائه ، فأخذ عصاه وانثنى على ثنايا أبي عبدالله الحسين ينكثها ، ويهز عطفيه نشوة ، وطرباً وأنشد :

ليت أشياخي ببدر شهدوا
جزع الخزرج من وقع الاسل
لأ هلوا ، واستهلوا فرحا
ثم قالوا يا يزيد لا تشل
لعبت هاشم بالملك فلا
خبر جاء ولا وحي نزل

وطاف همس بين الجالسين ، ثم صار لغطاً وحديثاً ، ورأت

زينب ان الساعة قد حانت لإداء الرسالة ، فانتفضت واقفة ، وقد لاثت خمارها عليها ، ووجهت حديثها إلى الطاغية بكل صمود وثبات .

« الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على رسوله وآله أجمعين، صدق الله سبحانه حيث يقول : ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوء ان كذبوا بآيات الله ، وكانوا بها يستهزئون » .

« أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض،وآفاق السماء ، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى ، ان بنا هوانا على الله ، وبك عليه كرامة ، وتوهمت ان هذا لعظيم خطرك ، فشمخت بأنفك ، ونظرت في عطفك جذلان مسروراً ، حين رأيت الدنيا لك مستوثقة ، والأمور متسقة ، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا ، فمهلا مهلا،أنسيت قول الله تعالى: «ولا يحسبن الذين كفروا،انما نملي لهم خيراً لانفسهم انما نملي لهم ليزدادوا اثماً ، ولهم عذاب مهين » .

« أمن العدل يا بن الطلقاء،تخديرك حرائرك واماءك،وسوقك بنات رسول الله سبايا قد هتكت ستورهن ، وأبديت وجوههن تحدو بهن الأعداء من بلد إلى بلد ، ويستشرفهن أهل المناهل والمعاقل،ويتصفح وجوههن القريب والبعيد،والدني والشريف، ليس من رجالهن من ولي ، ولا من حماتهن حمي ، وكيف يرتجى مراقبة ابن من لفظ فوه أكباد الأزكياء ، ونبت لحمه من دماء

الشهداء ، وكيف يستبطأ في بغضنا أهـل البيت من نظر الينا بالشنف والشنآن ، والاحن والاضغان ، ثم تقول غـير متأثم ولا مستعظم :

لاهلو واستهلوا فرحا ثم قالوا يا يزيد لا تشل

« منحنياً على ثنايا أبي عبدالله ، سيد شباب أهل الجنـة تنكتها بمخصرتك ، وكيف لا تقول ذلك ، وقد نكأت القرحة ، واستأصلت الشآفة باراقتك دماء ذرية محمد ، ونجوم الأرض من آل عبد المطلب ، وتهتف بأشياخك ، زعمت انـك تناديهم ، فلتردن وشيكا موردهم ، ولتودن انك شللت وبكمت ، ولم تكن قلت ما قلت ، وفعلت ما فعلت .

« فوالله يا يزيد ما فريت إلا جلدك ، ولا حززت إلا لحمك ، ولتردن على رسول الله بما تحملت من دماء ذريته ، وانتهكت من حرمته في عترته ، لحمته ، حيث يجمع الله تعالى شملهم ويلم شعثهم ، ويأخذ بحقهم ، « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

« وحسبك بالله حاكماً ، وبمحمد خصيماً » وبجبرئيل ظهيراً ، وسيعلم من سول لك ومكنك من رقـاب المسلمين بئس للظالمين بدلا ، وأيكم شر مكانا وأضعف جندا .

« ولئن جـرت علي الدواهي مخاطبتك ، اني لأستصغر قدرك ، وأستعظم تقريعك ، واستكثر توبيخك ، لكن العيون ،

عبرى ، والصدور حرى .

« إلا فالعجب كل العجب ، لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء ، فهذه الأيدى تنطف من دمائنا ، والأفواه تحتلب من لحومنا ، وتلك الجثث الطواهر الزواكى تنتابها العواسل .

« ولئن اتخذتنا مغنماً ، لتجدنا وشيكاً مغرماً ، حين لا تجد إلا ما قدمت يداك وما ربك بظلام للعبيد ، وإلى الله المشتكى ، وعليه المعول .

« فكد كيدك ، واسع سعيك ، وناصب جهدك ، فوالله لا تمحو ذكرنا ، ولا تميت وحينا ، ولا تدرك أمدنا ، ولا تدحض عنك عارها ، وهل رأيك إلا فند ، وايامك الا عدد ، وجمعك الا بدد .. يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين

« اللهم خذ لنا بحقنا ، وانتقم ممن ظلمنا ، واحلل غضبك بمن سفك دماءنا وقتل حماتنا .. والحمد لله رب العالمين ، الذي ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة ، ولآخرنا بالشهادة والرحمة ، ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب ، ويوجب لهم المزيد ، ويحسن علينا الخلافة ، انه رحيم ودود ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

ثم هدأ البركان .. وسكتت زينب ، ويزيد مطرق برأسه إلى الارض ، وكل من كان معه مطرق ، كأن على رؤوسهم الطير .

ولقد كانت زينب موفقة في خطبتها كل التوفيق ، فقد عرف

الناس أن المتكلمة من هي ، وكشفت الجانب الاول من أسباب النزاع بين الحق والباطل ، وأوضحت العوامل الأساسية لهذه المعركة الدامية التي أغرق يزيد فيها نفسه بدافع الضغينة الجاهلية والنعرات القديمة ، والتي اكلت قلب جده أبي سفيان ، وأبيه معاوية ، ثم أتت عليه .

ومهما حاول يزيد أن يخفي الحقيقة فقد وضحتها هذه الخطبة بكل صراحة وجد ، والحق لا يمكن اخفاءه مهما دامت صولة الباطل ، وهي بالنهاية لن تدوم ، ويوم الظالم آت مهما امتد أمده ، وحشرجة المظلوم أجراس الثورة والفداء مهما بعدت .

ولقد كشفت النقاب بهذه الخطبة النارية أبعاد النهضة الحسينية ، وان ذكراها لن تنمحي مهما استطال الزمن وأشرقت الشمس .

ولم تكن هذه الخطبة إلا الشعلة الوقادة التي أذكت القلوب ، وهزت المشاعر وأيقظت النفوس ضد يزيد وسلطانه ثورة عارمة أتت بعد فترة على مجد الأمويين ومحته حتى من الذكرى .

وهذه هي المهمة الخطيرة ، ونتائجها المثمرة التي اسندها الامام الحسين لأخته من بعده لتربط نتائج النهضة الحسينية الخالدة بالشعور العام ، وتجندهم لثورة عارمة ضد الباطل .

وفعلا كانت البداية فرغم أن الشام عاصمة الأمويين ، ومجد خلافتهم فقد سرت البلبلة - بعد خطبة زينب - فيها - وكثر اللغط بين الناس ، واضطر يزيد بأن يلفلف أمر السبايا ، ويتظاهر

لهم بشيء من العطف ، حتى يذكرها الراوون بأن يزيد أخذ يلعن ابن مرجانة ، بأنه هو الذي تعجل بهذا الأمر .

هيهات أن يكون الأمر كذلك ، فحقد الأمويين أمر لا يمكن المغالطة فيه ، ومع أن ابن مرجانة ، حاقد ولئيم ، ولكن ما كان ليقدم على كل ذلك أوامر سيده وخليفته يزيد ، وكان وبلوعة التعبير ينتظر هذا اليوم الذي يرى فيه انه شفي من رسول الله ديونه .. ديون قديمة انحدرت اليه ارثاً من جده أبي سفيان ، وأبيه معاوية ، وجدته هند ... ولكن لم تدم الفرحة ، فقد انحسر الضباب ، وغام عهد الأمويين ..

مَرارة التّذكرى

وقال الشيخ أبو معاذ، والكل آذان صاغية لما يقوله محدثهم:

لقد كان لخطاب زينب صدى عميقاً في نفوس الناس ، فقد الهبت المشاعر ، وأثارت الأحاسيس ، وكشفت النقاب بأن السبايا لم يكونوا من الترك والديلم ، وإنما هم آل بيت رسول الله (ص) قتل يزيد رجالهم ، وسبى نساءهم ، ولم تعد تنطلي على كثير من الضالعين في ركاب يزيد حيل الحفدة بأن هؤلاء خرجوا على الخليفة فكان جزاؤهم كما كان ، وأين الثريا وأين الثرى ؟ حتى أولئك المرتزقة الملتفين حول مائدة خليفة الأمويين ، كانت في أعماق نفوسهم من يزيد عوامل تغلي عليه كالمرجل ، ولعل أبسط مثال كما يذكر موقف زوجة يزيد ، بعد أن علمت أن السبايا هم بنات الرسالة خرجت إلى المجلس غاضبة مكشوفة الرأس ، فحاول يزيد أن يسترها فردته بعنف :

أخذتك الحمية عليّ ، ولم تأخذك على بنات رسول الله، والله لا ألبس خماري حتى تحمي هذه الرؤوس من عيون الناس، وتستر هذه النسوة ...

واضطر أن يأمر بالسبايا أن ينزلوا في خربة من الشام ـ كما

يقولون أو مكان قصي عن الناس، ريثما يتم أمر ترحيلهم، فلقد بلغه ما كان من الاحتكاك واتصال هذه الأسرة بالناس، وتأثيرهم عليهم.

وندب يزيد النعمان بن بشير، وأمره أن يصطحب الموكب العائد الحزين إلى مدينة الرسول، دوان أن يجهدهم وان يرفق بهم، ويكون امامهم، وان يتفرق وأصحابه لحمايتهم.

أمر بهذا كله معتقداً أنه يستطيع أن يتلافى الماضي المخزي الذي سود وجه الأمويين، ويذكر الراوون انه قال: وهو يخاطب علي بن الحسين:

لعن الله ابن مرجانة، اما والله لو اني صاحب أبيك ما سألني خصلة أبداً إلا أعطيته اياها، ولدفعت الحتف عنه، بكل ما استطعت، ولو بهلاك بعض ولدي ولكن قضى الله مارأيت.

وهل يجدي الحديث، ويقبل العذر، وممن؟ من يزيد وهو القائل ولقد قضيت من الحسين ديوني.

وإذا حاول ابن معاوية أن يخفف ردود الفعل التي حدثت عند الناس بعد ان انكشف أمر هذه السبايا، فأخذ يختلق الأعذار، ويفتعل العواطف ليخفف غلواء المتأثرين، ولكن هيهات، فقد نكشفت الحقيقة بكل جلاء ووضوح، ولم ينفع معها كل عذر.

وسار الموكب الحزين عائداً إلى الكوفة، ومنها إلى المدينة، وليس من السهل على زينب أن تمر بالمدن والقرى جيئة وذهابا،

وإن كانت هذه المرة أخف من سابقتها .

وبلغت أخبارهم مسامع الكوفة ، ومهما كان من موقف الكوفيين على الحسين عليه السلام في هذه المأساة،فإن الذهول بدأ يتقشع عنها ، وتعود لبعض صوابها ، وتحرك بعض الناس ، ممن استيقظت ضمائرهم لتصحيح المسيرة ، وشعر ابن زياد ما يدور في نفوس الناس ، وخاصة بعد أن بلغ ابن زياد، وابن سعد أن يزيداً القى باللائمة عليها، وانها تسرعا في قتل الحسين،ودب ذعر خفي في نفوسهما ، وصار كل منهما يتهم صاحبه بالتسرع في ذلك ، حتى ذكر ان ابن سعد أرسل كتاب ابن زياد الذي وجهه اليه يأمره بقتل الحسين إلى المدينة ليبرر موقفه عند أهلها ،بعد أن كثر عليه اللغط والذم،وأكثر من هذا وذاك، أن النزاع بين الرجلين ابن سعد وابن زياد بلغ صريحاً ، وفي هذا الحال وصل الموكب الحزين إلى مشارف الكوفة ، وقد تبدلت الكوفة قرابة شهر فبعد ان كانت كتلة متراصة ضد الحسين وأهل بيته ، أصبحت اليوم حزينة دامعة العين عليه ولم يشأ الركب أن يستريح كثيراً في هذه المدينة فإن هول الذكريات قض مضجع زينب واخوات زينب .

وطلبت زينب من النعمان قائد الموكب ، أن يمر بهم على كربلاء ليجددوا عهداً بقتلاهم ، فظل الكوفة ثقيل عليهم،ورغم قصر المدة التي مكث فيها الموكب ، وهو يتجه إلى كربلاء،فقد

غلت هذه المدينة ، وتركتها ابنة علي شعلة ثأر للثورة .

وبدت كربلاء بوجهها الدامى ، قفراء موحشة ، وعلت وجه الموكب صفرة الالم ، وحشرجة الموت ، هذه الذكريات الحزينة تنهال على زينب وعلى بن الحسين وغيرهما من آل بيت الرسالة ، وقد مرت الأيام — ساهمة الأضواء مضرجة الأفق ، صارخة القلب ، جازعة النجوم .

وانساب الموكب نحو وادي الموت ، يزرع في كل قطعة من شلة الفداء لم تمر الأربعون يوماً على هذه المأساة ، وقد أسدلت الستارة على كل ما جرى وصار ، لا .. أبداً .. انها ترآت لزينب وآل زينب ، وكأنها في يومها الدامي الحزين ، ابن سعد ، وابن ذي الجوشن ، والعتاة القساة من أهل الكوفة يحصدون تلك النفوس الأبية حصداً دون رحمة وشفقة ، ومادت الأرض بهم ، ودرت العيون دموعاً ، وتفجرت القلوب آهات ، والقبور المنتثرة هنا وهناك تكاد تصعد بالأجسام الثاوية فيها لتحتضن الركب المجهد العائد من رحلة الحزن ..

فلم تكن هذه المشاعل المتأججة من هذه القبور ، إلا شموس نداء تنير الطريق للثائرين عبر السنين والتاريخ .

وفي ذلك اليوم تشاء الصدف أن يلتقي بالموكب الحزين في وادى الموت ، وعند قبر الإمام أبي الشهداء جابر بن عبدالله الأنصاري ، وجماعة من بني هاشم ورجال من آل رسول الله

قد وردوا لزيارة الحسين ، وتجديد الذكرى به ..

وجاشت النفوس حزناً ووقف وسط الجمع المفجوع جابر بن عبدالله الأنصاري وهو الصحابي المعروف ، وبعين ملؤها الحزن والأسى قائلا :

« يا حسين .. حبيب لا يجيب حبيبه ، وانى لك يالجواب ، وقد شحطت أوداجك على أثباجك،وفرق بين رأسك وبدنك، فأشهد انك ابن خاتم النبيين ، وابن سيد المؤمنين ، وابن حليف التقوى ، وسليل الهدى ، وخامس أصحاب الكساء وابن سيد النقباء ، وابن فاطمة الزهراء ، سيدة النساء ، ومالك لا تكون كذلك وقد غذتك كف سيد المرسلين ، وربيت في حجـــر المتقين ، ورضعت من ثدي الايمان ، وفطمت بالاسلام ، فطبت حياً ، وطبت ميتاً . ان قلوب المؤمنين غير طيبة بفراقك ، ولا شاكة في الخيرة لك ، فعليك سلام اللهورضوانه وأشهد انك مضيت على ما مضى عليه أخوك يحيى بن زكريا » .

ثم صمت جـابر قليـلا ، وأجال بصره حول القبر وقال : والسلام عليكم أيتها الأرواح التي حلت بفناءالحسين، وأناخت برحله ، أشهد انكم اقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ، وأمـرتم بالمعروف ، ونهيتم عن المنكر ، وجاهدتم الملحدين ، وعبدتم الله حتى أتاكم اليقين .

والذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله بالحق نبياً ، لقـد

شاركناكم ، فيما دخلتم فيه ، وإنا لله وإنا إليه راجعون » ..

وتشرق شمس اليوم الرابع على بقاء الموكب في كربلاء ، ويأمر علي بن الحسين بالرحيل ، فتلملم زينب أحزانها ، وتجمع النسوة ، ويعود الركب سيره نحو مدينة الرسول ، وليكون له آخر المطاف ، ويطوي الفيافي والقفار ، ما أثقل الذكريات تمر على زينب كلما لاح موقع نزلوا فيه مع الحسين والأقمار من أهل بيته . في طريقهم إلى كربلاء وكلما اقتربوا من المدينة ، تعالى أنين النساء ، وحنين الأطفال ، لقد بلغ أو شارف إلى منتهاه وبالأمس القريب غادر موكب الحسين مدينة الرسول واليوم يعود موكبه ، وفي الذهاب والاياب بون شاسع .

وسبق بشر بن حذلم إلى المدينة ينعى الحسين ، وهرع الناس لاستقبال الموكب المثكول ، ولكن زينب لم يقف بها السير ، رغم تهافت العلويات عليها حتى وصلت إلى باب مسجد جدها رسول الله ، فأخذت بعضادتيه ، وصاحت : يا جداه ناعية اليك أخي الحسين وأهل بيته .. وخنقتها العبرة ، وماتت الكلمات .

ولم تهدأ نفوس الهاشميين ، ولا جفت لهم دموع فالحزن يخيم عليهم ، والأسى يقطع قلوبهم .

وكانت المآتم في كل بيت من بيوت الهاشميين . وكان في بيت عبد الله بن جعفر - زوج زينب - مأتم هز النفوس ، وأثمرت هذه المآتم فقد أوقدت في أعماق الناس الثورة على الباطل ، ومجابهة حكامه . كما رواه لنا التاريخ فيما بعد - .

وغربت الشمس

ولم تخمد الجذوة .. ولم تغف الأيام .. ولم يجف الدم .. ولم تغرب الأنوار فزينب الهبت الأجواء ضد البيت الأموي ، ومن تصلع في ركابهـــم ، وكشفت حقائق نهضة الحسين عليه السلام وملئت آفاق المدينة ثورة ، فضاق الوالي الأموي بذلك ذرعاً . وكتب إلى يزيد كتاباً يقول فيه :

« ان وجود زينب ابنة علي بين أهل المدينة مهيج للخواطر ، فانها فصيحة عاقلة لبيبة ، وقد عزمت هي ومن معها على القيام للأخذ بثأر الحسين ، فعرفني رأيك » .

ولم يكن عمرو بن سعد الأشدق بالكاذب على أميره يزيد : فان ابنة علي أخذت تؤلب الأمة على الحكم الأموي ، بمـــا أوتيت من قابلية وامـكانية بيانية فكتب اليه يزيد أن يفرق بينها وبين الناس .

ان السنوات التي قضتها زينب بعد مقتل أخيها الحسين ، ـ على اختلاف المؤرخـــين فيها من السنين إلى الأربع ـ قلت أو كثرت ، فقد كانت لسان صدق في تبليغ الدعوة ، واستمرارية رسالة جدها .

وعندما طلب منها عمرو بن الاشدق الوالي الأموي أن تترك المدينة كي لا تثير عليه البلد ، ردت عليه بكل قوة وجرأة .

« قد علم والله ما صار الينا . قتل خيرنا ، وسقنا كما تساق الأنعام ، وحملنا على الأقتاب ، فوالله لا أخـــرج وان أريقت دماؤنا ».

واشتد الموقف بين الوالي وآل البيت ، وزينب مصممة على ارادتها تريد أن تؤدي رسالتها مهما كلفها الأمر ، وقد لا تعلم نساء آل أبي طالب انها مكلفة من أخيها أبي الشهداء بالنهوض برسالة جدها في هذه الفترة وكلمتها نساء بني هاشم بمغادرة المدينة ، كي لا تجدد المأساة على العلويين. والأمويون لا يتورعون عن ارتكاب أي جريمة في سبيل توطيد حكمهم، وكان من جملة من كلماتهن لزينب بنت علي بن أبي طالب.

« زينب : قد صدقنا الله وعده ، وأورثنا الأرض نتبوء منها حيث نشاء ، وسيجزي الله الظالمين . أتريدين بعد هذا هوانا أرحلي إلى بلد آمن » .

ولم يكن لزينب بد من الأخذ برأي الهاشميين من آل على حفظا لهم ، وقررت السفر ، لتهدء فورة الأمويين الخائفين من وجودها ، فـــان زينب تمكنت أن تؤدي رسالتها الجهادية ، فالغمت الآفاق المضرجة بـدماء الشهداء ، وغذت النفوس المتدفقة بحب آل البيت ، فلم تمض سنوات قليلة قد لا تزيد على

الأربع سنوات على أبعد الأقوال ، حتى كانت الثورة تندلع في وجه الأمويين ، تقض مضجع يزيد ، وتقلق مروان وأمثاله ، وتنذر المرتزقة بالدمار .

وصدى كلمات زينب في مجلس يزيد ترن في الأذان :

« يا يزيد : فكد كيدك ، وأسع سعيك ، وناصب جهدك ، فوالله لا تمحو ذكرنا ، ولا تميت وحينا ، ولا تدرك أمدنا ، ولا تدحض عنك عارها ، وهل رأيك الا فند ، وأيامك إلا عدد ، وجمعك الا بدد .. يوم ينادي المنادي الا لعنة الله على الظالمين» .

وفي صبح استعر نوره الما ، وقف موكب زينب على عتبة مسجد الرسول يودعه بقلب حزين ، وحوله الهاشميون رجالا ونساء ، وكثير من الاصحاب منها زينب ستغادر المدينة ،منفية ، أقض وجودها نفوس الأمويين فان الدنيا على وشك الانفجار ، وحكم يزيد بدء يلوح بالأفول ، ويحاول الأمويون ترميم هذا المظهر ، لكن هيهات ، فابن فاطمة الزهراء قد أثارها حربا شعواء على الأمويين بعد مقتله ، وقد ثاب الكثير إلى رشده ، وانجابت الظلمة عن عيونهم ، ومهما توغل آل أبي سفيان في حصد علي وآله وأصحابه بكل ما يقشعر له الانسان ،ويطير صوابه ، حتى انهم — وفي حسابهم اجتاحوا كل الرجال ، ولم يبق إلا النساء والصبية والأطفال — تفننوا في القتل والدمار لكن النور يزحف مهما كانت كثافة الظلمة .

وكان وداع زينب في المدينة مظاهرة صاخبة ، شدت الثائرين لدم الحسين ودعوة الحق إلى الجهاد والتضحية ، ورغم أن الأمويين تظاهروا بالفرحة والأطمئنان وهم يشهدون موكب زينب يودع مدينة الرسول ، لكن قلوبهم مضطربة ، وأفكارهم شاردة ، ونفوسهم هالعة ، فان سوط الانتقام يلوح لهم في الأفق ، وابنة علي لم تترك وسيلة لافهام الجماهير بحقيقة الأمر الا وسلكتها سراً وعلنا .

ومرت القافلة على المدن والقرى ، وهي تستقبل زينب ، وتسمع منها وتوزع في نفوسهم الثورة ، رغم مقاومة الأمويين لهذا التيار ، لكن زينب صعدت الاحساس والثورة من مرحلة التفكير إلى مرحلة التنفيذ .

وسواء انتهى المطاف بعقيلة الهاشميين إلى دمشق أو مصر ثم غربت الشمس ، لكن أشعة تلـــك الشمس الرائعة لم تخبو مدى الزمان .

وعجز الموت أن يلف ذلك الصدى المدوي في سماء العقيدة في كلمتها الخالدة ، وهي تهدد مجد الأمويين – الباطل كل الباطل – في أي زمان كان ، ومكان كان .

« فوالله لا تمحو ذكرنا ، ولا تميت وحينا ، ولا تدرك امدنا »

وتوالت الثورات العلوية تطرز التاريخ شرفا ، وتنظر الأيام كرامة وتحرر الانسان من ظل العبودية والاستهتار .

ولن يدوم الباطل مهما امتد زمنه ، فقد انهار الصرح المشاد على اشلاء الفداء ، وجماجم العقيدة ، ويوم الباطل مهما دام لا بد أن يزول .

ويبقى ذكر زينب وآل زينب مشعلا ينير الطريق للاجيال الحرة عبر السنوات من أجل العقيدة ، وكرامة الانسانية .

وهكذا كان كما قال الله سبحانه .

« ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون » .

المصادر

١ – الارشاد	الشيخ محمد بن محمد بن النعمان المفيد
٢ – كشف الغمة في معرفة الأئمة	علي بن عيسى الاربلي
٣ – تاريخ اليعقوبي	أحمد بن أبن يعقوب بن وهب الكاتب
٤ – مقتل الحسين	أبو المؤيد الموفق بن أحمد المكي الخوارزمي
٥ – شرح نهج البلاغة	عبد الحميد بن أبي الحديد
٦ – تاريخ الأمم والملوك	أبو جعفر بن جرير الطبري
٧ – مروج الذهب	أبو الحسن علي بن الحسين المسعودى
٨ – الكامل في التاريخ	عز الدين علي بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير
٩ – الامامة والسياسة	عبد الله بن مسلم بن قتيبة
١٠ – وقعة صفين	نصر بن مزاحم
١١ – مقاتل الطالبين	علي بن الحسين ، أبو الفرج الأصبهاني

١٢ – انساب الاشرف	أحمد بن يحيى البلاذري
١٣ – المناقب	محمد بن علي بن شهر اشوب
١٤ – بلاغات النساء	أحمد بن أبي طاهر المعروف بابن طيفور
١٥ – مطالب السؤول	محمد بن أبي طلحة
١٦ – خصائص أمير المؤمنين	أبو عبد الرحمن النسائي
١٧ – تذكرة الخواص	سبط ابن الجوزي
١٨ – ذخائر العقبى	محب الدين الطبري
١٩ – نور الأبصار	الشيخ الشبلنجي
٢٠ – ينابيع المودة	الشيخ سليمان الحسيني البلخي القندوزي
٢١ – النصائح الكافية لمن يتولى معاوية	محمد بن عقيل
٢٢ – مقتل الحسين	السيد عبد الرزاق المقرم
٢٣ – زينب الكبرى	الشيخ جعفر نقدي
٢٤ – صلح الحسن	الشيخ راضي آل ياسين
٢٥ – الثقلان	الشيخ محمد حسين المظفر
٢٦ – علي وبنوه	الدكتور طه حسين
٢٧ – أبو الشهداء	عباس محمود العقاد
٢٨ – بطلة كربلاء	الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي

٢٩ – زينب بنت علي	عبد العزيز سيد الأهل
٣٠ – مع بطلة كربلاء	الشيخ محمد جواد مغنية
٣١ – عقيلة بني هاشم	السيد علي بن الحسين الهاشمي
٣٢ – ابنة الزهراء بطلة الفداء	على أحمد شلبي
٣٣ – فضائل الخمسة من الصحاح الستة	السيد مرتضى الفيروز أبادى
٣٤ – أهل البيت	توفيق أبو علم
٣٥ – ثورة الحسين	الشيخ محمد مهدي شمس الدين
٣٨ – أبناء الرسول في كربلاء	خالد محمد خالد

هدية الشهيد السعيد
السيد عز الدين بحر العلوم
لمكتبة الروضة الحيدرية

فهرس

في دنيا زينب	٥
صحوة الفجر	٧
بداية الغيوم	١٧
موكب العرس	٢٧
صبح الأحزان	٣٩
الضحى القاتم	٥٧
وفي وسط العاصفة	٨٣
قافلة الفداء	٩٧
في لحظة الوداع	١١١
إلى مذبح القرابين	١١٩
الظهيرة الدامية	١٣١
وبعد الزوال . حملت الراية	١٤٥
وغرق الطاغية	١٥٥
وانحسر الضباب	١٧١
مرارة الذكرى	١٨٧
وغربت الشمس	١٩٥
المصادر	٢٠٣

هدية الشهيد السعيد
السيد عز الدين بحر العلوم
لمكتبة الروضة الحيدرية

مكتبة الروضة الحيدرية
النجف الاشرف

هذا الكتاب

مهما يحاول التاريخ ان يكون مغرضاً وليس بامكانه ان يغالط في واقعة الطف وفي شخصيتين هما الامام الحسين (ع) واخته زينب الكبرى (ع) .

بدأ الحسين في معالجة ما تردى من اوضاع المسلمين في صدر الاسلام فثار على الظلم واعاد دين جده الذي اشار اليه الرسول الاعظم (ص) (حسين مني وانا من حسين).

واتمت زينب ثورة اخيها باعلام الناس قصده وغايته الاصلاحية وزيغ الامويين وانحرافهم عن الدين .

وهذا الكتاب موسوعة تاريخية على صغره يصور الثورة الحسينية بابعادها وافاقها الواسعة .

الناشر